الفصل الرابع

المشاهد العامة لذوات النَّاب والزَّواحف والحشرات

القسم الأول : مشهد ذوات النَّاب والأظفار

القسم الثاني : مشهد الزَّواحف والحشرات

oberikandl.com

obeikandl.com

المشاهد العامة لذوات الناب والزواحف والحشرات

لعل ما تقدم من مشاهد الحيوان في القصيدة الجاهلية نهض دليلاً على التوازن الفاعل للبيئة الجاهلية وعادات أهلها من خلال رؤية إنسانية تخلق المتعة النفسية والفكرية والفنية.

ومن هنا فإن مشاهد الحيوان تبقى رمزاً لقيمةٍ ما اعتلجت في نفوس الشعراء فأرسلوها في هذا النمط من القول سواء قصر المشهد أم طال. وتبقى مشاهد ذوات الناب والأظفار، ومشاهد الحشرات والزواحف ممثلة لهذا الاتجاه وإن حملت أنماطاً خاصة تسمو بخيال المرء لما تستجنه هذه الحيوانات من صفات مغايرة لسابقتها، إذ تبدو فكرة التسخير – مثلاً – معقدة إلا في بعض أنواع من هذه الحيوانات التي سخرها الإنسان لحاجاته كالكلاب والنحل.

ولهذا فإن هذه المشاهد غلب عليها الأبيات المفردة عدا بعض المشاهد كما في مشهد الأسد والذئب،وهي تنتهي إلى الإيحاء المعبر في تصوير حسي عن أفكار القوم وهواجسهم، وتتوجّه إلى قيم محددة في المدح والهجاء والفخر والرثاء، فتأخذ من مشهد الكلاب صفة الوفاء والكرم، ومن مشهد الأسود الشجاعة والبأس، ومن الذئب الغَدْر والخيانة والاستجاشة، ومن الضبّاع والثعالب صفة الروغان والخِسّة والدناءة. فإذا انتهت المشاهد إلى الحشرات والزواحف استمدت من الأفاعي خفتها وقوتها، ومن الحرابي تلوّنها ومن الضب حكمته، ومن الذباب دلالته على الربيع، ومن النَّحْل عظيم فائدة نظامه في العمل، ومثل هذا يقال في النَّمْل.

وهكذا تثبت هذه المشاهد أنها مادة للتمثيل المجازي عن القيم الأصيلة التي تواضع عليها الجاهليون مزينة بالشواهد الحية لإيضاح صورة المشبه ماجعلها بنية فنية صغرى في بنيات فنية أكبر تؤكد وظائفها وأهدافها في أغراض شتى كالمدح والفخر و..... . ولذلك كان لزاماً علينا توضيح ما قلناه.

obeikandl.com

obeikandl.com

القسم الأول : مشهد ذوات الناب والأظفار

يتناول هذا المشهد الصورة العامة التي عرفها الجاهليون لعدد من الحيوانات كالكلاب والأسود والذئاب والضباع والثعالب والنمور وغيرها من ذوات الناب والأظفار. وقد سخر الله للإنسان سبل معرفتها والإفادة منها، حين أدرك مواطن قوتها وضعفها، وتفهم طباعها، وما تنطوي عليه من عظيم الصنعة، ولكل مخلوق طبع تأصل فيه. فحين استطاع الجاهلي تسخير الكلاب لنفسه فجعلها حارسة لأغنامه أو دربها على الصيد فإنه ظل على حذر شديد من الأسود ولا سيما المُخْدِرة، وكذلك فعل مع الذئب الذي ناصبه العداء على الرغم من أن الجاهلي أكرمه وأثابه وإن كان لا يستحق ذلك أما الضّباع والثعالب فقد التصقت فيها صفة الدناءة والخِسّة ولهذا نبشت القبور إن لم تجد طعامها في جثث القتلى المتحاربين.

وبهذا فكل مشهد يقوم على سمات معنوية لا تكمن في غيره، ولا سبيل إليها إلا بإيضاحها من خلال المشاهد واحداً بعد واحد.

١- مشهد الكلاب:

هذا المشهد من جملة المشاهد التي تؤكد أن العرب بالغوا في إثبات الأمور المعنوية لحيواناتهم، ولا سيما تلك التي تستند إلى الصفات المشهورة فيها، كالأصوات[١] والألوان والسرعة. فحين أدركوا صفة الإخلاص في الكلاب دربوها على بعض الشؤون الخاصة[٢].

ومشهد الكلاب في القصيدة الجاهلية لا يتوقف عند تعداد أسمائها وإنما ينقلنا إلى صفة النّباح التي اقترنت بالكرم، أو جُعلت مادة للهجاء، ويعرض لمشهد

---

١ - انظر الحيوان ٣١٢/١ و١٧/٢ و١٦٥- ١٧٤.

٢ - أطال الجاحظ الوقوف عند مشهد الكلاب في كتابه "الحيوان" موضحاً كثيراً من ذلك، انظر فيه ٢١٧/١- ٢٩٣ و١٧/٢- ٢١ و١٢٢ و١٢٨ و١٧٣- ١٧٥ و٣٦٣، وفعل شبيهاً من ذلك ابن سيده في كتابه "المخصص" انظر فيه ٨٣/٨ وما بعدها.

obeikandi.com

كلاب الحراسة والصيد وما اشتهرت به من صفة الإخلاص والوفاء لينتهي إلى إجمال لصفاتها الحسية والمعنوية. أما الحديث عن أصوات الكلاب فهو يأخذ أبعاداً كثيرة[1]، فقصة كلب وائل بن ربيعة مشهورة في هذا الباب، إذ يعرض لنتائجها دريد بن الصمة، حين ضربه مثلاً لبغي بني سفيان قائلاً[2]:

لَعَمْرُكَ مَا كُلَيْبٌ حِينَ دَلَّى بحَبْلٍ كَلْبَهُ فيمَنْ يَمِيحُ[3]
بأَعْظَمَ مِنْ بَني سُفْيانَ بَغْيَاً وكُلٌّ عَدوِّهِمْ مِنْهُمْ مَريحُ

فالمشهد يعمد إلى صفة النُّباح حتى غلب اسم النابح على الكلب ولو كان سبعاً عقوراً[4]، علماً أن الكلاب تدرك أن سلاحها في أشداقها[5]. والنّباح ظاهرة طبيعية ولكنها ذات دلالة عظيمة في حياة الجاهليين، ولا سيما إذا ضاع أحدهم[6]. فإذا قدم الضّال رحبت به الكلاب، وسكنت من نباحها بعد أن نبحها، كقول المثقب العبدي[7]:

ومُسْتَنْبِحٍ بات الصَّدَى يَسْتَتِيْهُهُ فَتَاهَ وجَوْزُ الليل مُضْطَرِبُ الكِسْرِ[8]
رَفَعْتُ له ناراً ثَقُوباً زنادُها تُلِيحُ إلى السَّاري: هَلُمَّ إلى قِدْرِي

ولهذا اقترن نباح الكلب بالنار لهداية الضالين إلى البيوت حتى صار ذلك مظهراً من مظاهر الكرم وعاداته، وأصبح إسكات الكلب مذمة ومنقصة يخشاه الجاهلي[9].

١- انظر الحيوان في الشعر الجاهلي ٤٢-٤٦ و٧٨ و٨٣ و١٩٨ والأمالي الشجرية ١ / ١١٤- ١١٥.

٢ - ديوان دريد بن الصمة ٤٤.

٣ - دلّى الشيء: أرسله. ويَميحُ: يستخرج الماء.

٤ - انظر صبح الأعشى ٣٩/٢.

٥ - انظر المصايد والمطارد ٤٥.

٦ - انظر الحيوان ٣٤٨/١.

٧ - الأمالي للقالي ٢١٠/١.

٨ - يستتيهه: يجعله يتيه في مفازة. وجوز الليل: وسطه. والكِسْر: الناحية.

٩ - انظر مثلاً: الأصمعيات ٥٨.

obeikandl.com

وأثبت جابر بن حُنَيّ مظنة حَسَنَة في عدوه، ولم يستطع إنكار دلائل كرمه حين وصف كلابه بأنها لا تصمت[1].

ولكن نُباح الكلاب ليس مثار حمد وفخار دائماً، لأن هذه المسألة تتحول إلى صفة ذم، وتتطابق والهرير على الضّيف فيُهجى بهما[2].

ومن هنا فإن صفة النباح تحث المرء على التفكير فيهما مطولاً ولا سيما حين ينتقل أمرها إلى الإنسان. فالنابغة الذبياني يعقد مشابهة طريفة بين لسانه وهذه الصفة حين يطلق عليه اسم الكلب، فهو يمنع لسانه من ذكر أي شيء يريب النعمان بن المنذر، فيقول[3]:

سأَكعمُ كلبي أَنْ يَريبَكَ نَبْحُهُ وإِنْ كنْتُ أَرْعى مُسْحَلانَ فحَامِرَا[4]

ولعل في صفة النباح من الدلائل من جعلها تصبح صفة للشاعر فيسترذلها بعض الشعراء لعلة الاقتران بينه وبين الكلاب، وقد قيل: إن الشعراء كلاب الحي[5]، ومن هنا تمنى لبيد بن ربيعة ألا يكون شاعراً، فقال[6]:

الكَلْبُ والشَّاعِرُ في مَنْزِلٍ فليْتَ أَنِّي لمْ أَكُنْ شَاعِرا

فصفة نباح الكلب والهرير مشتركة في المدح[7] والهجاء وكذا صفة الإخلاص والوفاء لم تكن مطلقة، لأن الكلاب ضربت مثلاً للإنسان الخسيس حين يكون موقى[8]، ويوضح هذا قول دريد بن الصمة[9]:

فأَبْقَاهُنَّ أَنَّ لهُنَّ جَدَّاً ووَاقِيَةً كوَاقِيَةِ الكِلابِ

---

١ - انظر المفضليات ٢١٢ ق٤٢.

٢ - انظر مثلاً: ديوان عنترة بن شداد ٢٢٤- ٢٢٥ والأعشى ٢٧٩.

٣ - ديوان النابغة الذبياني ٦٩.

٤ - سأكعم كلبي: أي سأكف لساني وهجوي. ومسحلان وحامر: واديان.

٥ - انظر الحيوان ٣٥١/١ ومعلقة عمرو بن كلثوم ٦١ وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي ١٩٨.

٦ - شرح ديوان لبيد بن ربيعة ٣٥٧.

٧ - انظر مثلاً: ديوان دريد بن الصمة ٣٢.

٨ - انظر الأغاني ١٩/١٩ وثمار القلوب ٣٩٧- ٣٩٨.

٩ - ديوان دريد بن الصمة ٣٩.

obeikandi.com

وقد يكون كلب طَسْم أفضل مثال على هذه القضية في أشعار الجاهليين وأمثالهم[1]. وكان من أمره أن رجلاً ارتبط كلباً ليصيد به فكان يطعمه ويسقيه رجاء ذلك، فأبطأ عليه يوماً فلما دخل الرجل وثب عليه الكلب فافترسه، فأطلق مثلاً في كُفْران النِّعْمة، إذ قيل: سَمِّن كلبك يأكلك[2]. ولعل الكلبة[3] براقش واحدة من إناث الكلاب التي كافأت المحسن إليها بالإساءة حين دلت على أهلها.

ومهما يكن من أمر هذه القصص فإن العرب ربت كلاباً للحراسة، ودربت أخرى على الصيد فكانت شكلاً من أشكال الوفاء والتسخير المفيد. وقد أدرك غالبية القوم هذه المسألة بكل دقة، لأنهم شغلوا أنفسهم بتدريب الكلاب على مرافقة الأغنام وحمايتها من الذئاب والضواري[4]، ولقنوا بعض الكلاب ولا سيما السلوقية دروساً في جلب الطرائد وملاحقتها، فصارت من الجوارح المعلمة[5].

فالكلاب أياً كان أمرها احتلت مكانة متميزة عند العرب، فكلب أبي زبيد الطائي واسمه (أَكْدَر) أشهر من أن يتحدث المرء عنه، ولعل رثاء أبي زبيد له حين بطش به أسد ضار لا يَعْدِلُهُ رثاء البشر، وكان أكدر قد ظن في نفسه القدرة على منع الأسد من الفساد فسقط وهو يؤدي حق الدفاع، فيقول أبو زبيد[6]:

فجَالَ أَكْدَرُ مُخْتالاً كعَادَتِهِ ... حتَّى إذا كان بَيْنَ الحَوْضِ والعَطَنِ[7]

لاقَى لَدَى ثُلَلِ الأَطْواءِ دَاهِيَةً ... أَسْرَتْ، وأَكْدَرَ تَحْتَ اللَّيْلِ في قَرَنِ[8]

---

١ - انظر مثلاً: ديوان طرفة بن العبد ١٦٥ وثمار القلوب ٣٩٣.

٢ - انظر مجمع الأمثال ٣٣٣/١ وثمار القلوب ٣٩٣ وجمهرة الأمثال ٥٢٥/١.

٣ - انظر مجمع الأمثال ١٤/٢ وثمار القلوب ٣٩٣ وجمهرة الأمثال ٥٢/٢.

٤ - انظر الحيوان ٣٠٢/١ و٣٧٧ و١٧٨/٢.

٥ - انظر سورة المائدة ٤/٥ واللسان (كلب) وتفسير النسفي ٢٧١/١.

٦ - شعر أبي زبيد الطائي ٦٦٦- ٦٦٨ وانظر كتابنا قصيدة الرثاء ٢٢١ - ٢٢٤ .

٧ - العَطَن: مبرك الإبل حول الحوض.

٨ - الثُّلَل: جمع ثَلَّة، وهو ما أخرج من تراب البئر. والأَطْواء: جمع طَوِيّ: وهو البئر المطوية بالحجارة. والقَرَن: الحبل.

obeikandi.com

إلى مُقارِبِ خَطْوِ السَّاعِدَيْنِ لهُ فَوْقَ السَّرَاةِ كذِفْرَى القَارِحِ الغَضَنِ[1]

فأَسْرَيَا وهُما سَنَّا هُمومَهُمَا إلى عَرِينٍ كعُشِّ الأَرْمَلِ اليَفَنِ[2]

هَذا بما عَلِقَتْ أَظفَارُهُ بهِمُ وَظَنُّ أكدَرَ غَيْرُ الأَفْنِ والحَتَنِ[3]

ويصور أبو زبيد خروج لبوة مع أشبالها الستة حتى إذا تم العدد ثمانية بالأسد وخاف غِرّتهم جال جولة يطلب المهرب، وأنَّى له هذا؟ فقد تصدى الأسد له[4]:

أَلْقَاهُ مُتَّخِذَ الأَنْيَابِ جُنَّتَهُ وكانَ باللَّيْلِ ولاَّجَاً إلى الجَنَنِ[5]

إن نظرة أخرى إلى المشهد تثبت أن القدر نصب شركه لأَكْدر، ولن يترك له فرصة الحياة. ولهذا جعله الشاعر ضعيفاً، وعلى ضعفه يعترض الأسد الغَضَنْفَر ويراوغه مُثبتاً تحقيق وفائه لأبي زبيد، وإن لاح له الخوف وظنَّة المهلكة إلا أنه قضى نَحْبَه بشرف. ولو كان في موقع أكدر إنسان لما تصرّف أكثر من ذلك، ولا سيما حين أخذ يعاود التفكير في الوقت الذي ظهرت اللبؤة وأشبالها.

ولم يقتصر المشهد على ما تقدم، لأنه عرض جملة من الصفات الحسية للأسود وهي تخرج من أجمتها، ورسم صورة للكلاب المدربة على الحماية والقتال[6]. فشهرة أكدر لا تقل عن تلك التي أحيطت رقابها بالقلائد[7]، أو تلك التي دُرِّبَت على تعقب آثار الأعداء[8].

---

١ - الذِّفْرَى: من خلف الأذن إلى القفا، وهو العظم الشاخص خلف الأذن، والقَذَال: القَفَا والذِّفرى. والقارح من الخيل: ما كان في سن الخامسة. والغَضَن: المُتثني.

٢ - أَسْرَيا: يعني الأسد والكلب. وسَنَّا همومهما: وجها همهما. واليَفَن: الشيخ والكبير.

٣ - الأَفَن: ضَعْف الرأي. والحَتَن: الباطل، وحرك التاء للضرورة.

٤ - شعر أبي زبيد الطائي ٦٦٧.

٥ - الجَنَن: المَيْت أو القبر الذي يستر الجسد.

٦ - انظر مثلاً: شعر زهير بن أبي سلمى ٧٠ والحيوان ٣٦٣/٢ وراجع ما تقدم ٨٦ وما بعدها و١٧٥.

٧ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٣ وبشر بن أبي خازم ٥٦ وعامر بن الطفيل ٨ وعبيد بن الأبرص ٢٣ و٣٢ والأعشى ١٤٢ و٢٠٣ و٣١٥ و٣٩٩ والمزرد ٤٧ وشرح ديوان لبيد ٧٨ والمفضليات ١٩٦ وسورة المائدة ٤/٥ والأنعام ٦٠/٦.

٨ - انظر أسماء المغتالين (لابن حبيب) ٢٣١.

obeikandl.com

ومن هنا يظهر لنا أن العرب فرَّقوا بين أنواع الكلاب الأهلية والسلوقية. فالسلوقية اتخذت لمهنة الصيد وكان فيها جشع كجشع أصحابها[1]، ولها مدربون يقومون على أمرها. فإذا لم ينفع تدريبها كانت مدعاة للشتم والتقبيح هي ومدربوها، وإذا أحسن القيام عليها امتُدحت وامتدحوا[2].

ولعل من حسن التيمن بفوزها أنه أُطلق عليها الأسماء التي تدل على الكسب، وتوحي بالثقة بها[3]. كما أنها تعلمت متى ينتهي عملها ليأتي عمل الصياد، فيجاهر الطريدة، ويرشقها بسهامه[4].

وهكذا تبين أن مشاهد الصيد اشتملت بشكل واضح على صفات الكلاب ولا سيما السرعة واللون. فهي ترخي آذانها لتزداد سرعتها[5]، وكأنها النشاب[6]، وتلمع عيونها الزرق[7] كالعِضْرَس[8]، وتفتح أفواهها كالمناشير[9]، وتحيط بفريستها كالنحل[10]. أما لونها فلون الذئب غالباً، وكذا لون ثياب الصياد[11]، ليكون ذلك أفضل للتخفي والتماثل بالطبيعة. أما مشهد كلاب الصيد فقد وقفنا عنده في

---

١ - انظر مثلاً: المفضليات ١٩٥ ق٤٠ ب ٥٥ وانظر صبح الأعشى ٣٩/٢ ومحاضرات الأدباء ٦٩٨/٤.

٢ - انظر مجالس ثعلب ٤٨٤/٢ وانظر مثلاً: ديوان طفيل الغنوي ٣٨ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٧٨.

٣ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٠٤ والأعشى ٣٩٩ والنابغة الذبياني ١٩ والمزرد ٤٧- ٤٩ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٣٩- ٢١٣ وشعر النابغة الجعدي ٣٩.

٤ - انظر مثلاً: شعر أبي دواد ٣٥٢ وديوان الأعشى ٢١ و١٢١.

٥ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٤٣ وبشر بن أبي خازم ٥١ و٥٦ والأعشى ٢٤٩ و٣١٥ والنابغة الذبياني ٢٠٣ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٧٨ و٢٤٠.

٦ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٣٩٩ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٤٠.

٧ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٢١ وشعر زهير بن أبي سلمى ٧٠.

٨ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٠٣ والحيوان ٢٠١/٢، والعِضْرِس: نبات له لون أحمر.

٩ - انظر مثلاً: ديوان النابغة الذبياني ١٥٨ وهامش (٩) من الصفحة السابقة و (٢) من هذه الصفحة.

١٠ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٤٣ والأعشى ٢٤٩.

١١ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٨٤ والأعشى ٢٥٧ و٣١٥ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٤٥ وشعر النابغة الجعدي ٣٩.

openkanal.com

مشهد الخيل والناقة، وعرضنا لعدد من صوره[1]، وتصدى لتفسيره وتحليله عدد غير قليل من الدارسين، ولاسيما حين ربطوه بمشهد البقر الوحشي، على ندرة ارتباطه بغيره[2]. وقد ذهبوا في تأويل المعركة التي تحصل بين الطلاب والثور الوحشي تأويلات شتى قريبة وبعيدة.

وباختصار إنها تحسن ما يطلب إليها، لأنها وفية، ومحبة لصاحبها فلا تعصي له أمراً[3]. فلا غرو بعد هذا أن يعتز الجاهلي بنسبها[4]، ويجعل لها شجرة أنساب كالخيل[5].

ولو تفحص المرء ما احتواه مشهد الكلاب لوجده ممتلئاً بمعطيات فكرية ونفسية كثيرة، فقد اتخذ لنفسه مكانة في حيز القصيدة الجاهلية لا تقل عن منزلة الكلاب في حياة الجاهليين، لأنها صارت مضرب المثل في كثير من شؤون حياتهم الاجتماعية والطبيعية. فإذا أولع المرء بشأن من شؤون الحياة قيل له: وَلَغ كوُلُوغ الكلب[6]. وإذا استشاط غيظاً قيل له: كَلِب الرجل[7].

وقد يقارب شدة الغيظ شدة الزمان حتى قيل فيه: كَلِب الزمان[8]، أما غَدْر الزمان فقد ضُرب قُلْح الكلب مثلاً له[9].

ذلك أبرز ما عرض له المشهد العام للكلاب فكيف يكون مشهد الأسود؟

---

١ - راجع ما تقدم ٧٧ وما بعدها ١٥٧ ومابعدها .

٢ - انظر - مثلاً - ديوان امرئ القيس ١٠٣و ١٦١ وشعر زهير ٧٠ و١٨٤ وديوان أوس بن حجر ٣ و ٤٣ وديوان بشر بن أبي خازم ٥٦ و ١٠٦ و١٢٥ وديوان النابغة الذبياني ٩- ١٢ ، وانظر من الدراسات (الرحلة في القصيدة الجاهلية - وشعر الطرد عند العرب - وشعر الطبيعة في الأدب العربي - والصيد والطرد في الشعر العربي)

٣ - انظر الحيوان ٢١٧/١- ٢٩٣ و٣١٣.

٤ - انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ١٠٢ و(صادر) ١٠٩ وديوان المزرد ٤٨.

٥ - انظر مثلاً: المصايد والمطارد ١٣.

٦ - انظر مثلاً: قصائد جاهلية نادرة ١٧٩ وجمهرة الأمثال ٣٥٠/٢.

٧ - انظر مثلاً: ديوان قيس بن الخطيم ١٧٤ واللسان (كلب).

٨ - انظر مثلاً: ديوان عامر بن الطفيل ١٥ واللسان (كلب) وسمط اللآلي ٧٥٩/٢.

٩ - انظر مثلاً: ديوان عامر بن الطفيل ٥٥، والقُلـ~ح: جمع أَقْلَح، وهو صفرة تعلو الأسنان.

obeikandi.com

٢- مشهد الأسود:

للأَسَد غير ما اسم عرف به كاللَّيْث[١] والهِزَبْر[٢] والضِّرْغَام[٣] والغَضَنْفَر[٤]، وأُسامة[٥] والرِّئْبَال[٦] والوَرْد[٧]، أما أنثاه فهي لَبْوة أو لبُؤَة[٨]. ويكنى أبا شِبْل[٩] وأبا الحارث[١٠] وأبا الأَبْطال وغير ذلك.

واسم الأسد اقترن بهيئته وكُناه، فهو ذو لِبْدة أو فَرْوة[١١]، وحين تبدو نواجذه[١٢] فإن نابه يبرق كأنه سهم[١٣]. وكل ذلك يحمل صفة الرهبة والبأس والقوة، فإذا صَرَّح الناس بالشرلبسوا فروة الضِّرْغَام[١٤]، وكأن أحدَهم ليثٌ منقبض على براثنه لوثبة الضاري[١٥]، ومَنْطِقُه زَئِير[١٦] يشبه خَوَات الرعد[١٧]، وزفرات فرسه[١٨] لا يماثلها إلا منطق الأسد.

---

١ - اللسان (ليث) وانظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٦٠ والأعشى ٢٧٣ والأصمعيات ١٥٣.

٢ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٣١٤ والخنساء ٤٦ وشعر أبي زبيد الطائي ٦٦٥.

٣ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ١٢٤ وعبيد بن الأبرص ١٧ والمزرد ٧٧.

٤ - انظر مثلاً: شعر خداش بن زهير ٧٦ وأبي زبيد ٦٠٦.

٥ - انظر مثلاً: شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ٨٩ ومجمع الأمثال ١٨٩/١.

٦ - انظر مثلاً: ديوان الخنساء ٤٦ وشعر أبي زبيد ٦٦٥ وديوان القتال الكلابي ٤٤.

٧ - انظر مثلاً: شعر أبي زبيد ٦٣ – و٦٢٤.

٨ - انظر اللسان (لبو).

٩ - انظر مثلاً: الأصمعيات ٧٧ وما يأتي من الشواهد.

١٠ - انظر اللسان (أبو).

١١ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٣١٥ وأوس بن حجر ١٢٤ وعبيد بن الأبرص ١٧- ١٨ وعامر بن الطفيل ٢٤.

١٢ - انظر مثلاً: ديوان سلامة بن جندل ١٤٨.

١٣ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٣٢٣.

١٤ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ١٢٤.

١٥ - انظر مثلاً: ديوان النابغة الذبياني ٧٥.

١٦ - انظر مثلاً: شعر زهير بن أبي سلمى ٢٤٥.

١٧ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٩٣ وعروة بن الورد (صادر) ٣٤ والأعشى ٤٠٩ وشعر أبي زبيد ٦٠٨.

١٨ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٢٢٤.

obeikandl.com

ومن هنا ندرك أن مشهد الأسود قل أن عرض للصفات الحسية، إذ فضَّل تناولها في إطار مجازي مثبتاً من خلالها صفات معنوية للأشخاص كالثبات والجرأة والقوة والسطوة حتى غدا الأسد رمزاً للفَتْك والشهامة[1]. ولاشيء أدل عليه من مشهد للأسد في شعر الأعشى، وهو يوضح فيه صورة رجل بخيل رأى في صديق له شكل الأسد أو الأَسْوَد من الأفاعل فقال[2]:

إذا زارَهُ يَوْمـاً صَـدِيْقٌ كأَنَّمـا يَـرى أَسَـداً في بَيْتِـهِ وأَسَـاوِدَا

وهذا المثال يدل على أن مشهد الأسود قد يقع في بيت أو أكثر، إلا أن المشاهد المطولة عزيزة وأغلبها يتعرض للأسد المشبل المُخْدر، وهو أحد المذاهب الفنية لذكر مشهد الأسد. وقل أن طالت مشاهد الأسد إذا كان منفرداً إلا إذا استُثني أبو زبيد الطائي الذي أطال الوقوف عند صفات الأسد في معرض رثائه لكلبه أكدر كما عرضنا له قبل قليل. أما المذهب الآخر فهو أن يأتي على ذكر الأسد المُخْدر الذي يحمي عرينه أو أجمته.

وبهذا كله يثبت أن مشاهد الأسود عرضت للذكور، وعزت المشاهد التي تناولت ذكر اللَّبُؤَة. وكانت مُسَخَّرة لإبراز صفات الأشخاص غالباً، وقل أن وردت في معرض آخر[3]. ولعل مشهد الأسود يؤكد خبرة العرب بطبع هذا الحيوان ومعرفة صفاته، مثلما يوضح انتشاره في مواضع محددة[4]. فالأسد ضُرب مثلاً للشجاعة، فهو جريء وقوي، وتزداد ضراوته إذا كان جائعاً أو مشبلاً. وكذا كان الفرسان من الجاهليين سواء ورد ذلك في غرض المدح أم الفخر أو الرثاء والهجاء. فزهير بن أبي سلمى يعرض لممدوحه هرم بن سنان فلا يرى نظيراً له إلا ليث عَثَّر فيقول[5]:

---

١ - انظر مجمع الأمثال ١٨٢/١ و١٨٩ وشعر الحرب في العصر الجاهلي ٩٩ و٤٧٢.

٢ - ديوان الأعشى ١٠١.

٣ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٣٩ وعنترة ٢٣٩ والسموأل ٧٦ والأعشى ١١٥ و٢٥١ والخنساء ٤٨ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٣ و١٩٠ و٢٥١ والمفضليات ٣٣ ق٣.

٤ - انظر كتاب (الحيوان في الشعر الجاهلي) و٧٣- ٧٩.

٥ - شعر زهير بن أبي سلمى ٧٦.

obeikandl.com

لَيْثٌ بعَثَّرَ يَصْطَادُ الرِّجَالَ إذا ما كَذَّبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا

فهذا المشهد يضعنا مباشرة أمام صورة الأسد المنفرد الذي يشبهه هرم بن سنان، بيد أن جرأة الأسد وشجاعته دون الممدوح ولو كان ضارياً، ولم تقلم أظفاره[1] وفق التشبيه المقلوب إذ يقول[2]:

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ[3]

فمنظر الأسد المُقَذَّف الذي طالت أظفاره لا تقل سطوة عن منظره حين يكشر عن نواجذه فيبدو الشر على أشده، ويعظم الخَطْب على مَنْ يلقاه، كما يتضح من قول عنترة بن شداد، إذ مَثَّل يوم الحرب به[4]:

أعاذِلُ كَمْ مِنْ يَوْمِ حَرْبٍ شَهِدْتُهُ لهُ مَنْظَرٌ بادِي النَّواجِذِ كَالحِ[5]

فالأسد يحطم بمخالبه[6] كل شيء، ويمزق بأنيابه فريسته، وكذا الأبطال الذين ينطلقون إلى المعارك غير هَيَّابين[7]، وقد ضُربت عليهم سوابغ بيض لا تُخَرِّقها النَّبْل[8]. فهم فرسانها، وقد تُرَدُّ على مكروهها الأُسْد[9]، أو يفترس بعضها بعضاً[10]، فالقتال ضارٍ، وما هي إلا أسود تلاقي نُموراً[11].

---

١ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٢١٥.

٢ - شعر زهير بن أبي سلمى ٢١.

٣ - شاكي السلاح: أي ذو شوكة، فهو حديد الناب قوي. والمُقَذَّف: كثير اللحم.

٤ - ديوان عنترة ٢٩٩.

٥ - النواجذ: الأضراس. والكالح: العابس الذي تقلصت شفتاه.

٦ - انظر مجمع الأمثال ١٩٩/١.

٧ - انظر أيام العرب (جاد المولى ورفاقه) ٦٤.

٨ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٣٩ وشعر زهير بن أبي سلمى ٣٥ والمفضليات ١٩٥ ق٤٠ والأصمعيات ٢٠٧ ق٧٠.

٩ - انظر مثلاً: الوحشيات ١٠.

١٠ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٩٣ وقيس بن الخطيم ١٤٢ والأصمعيات ٨١ ق٢١ وشرح ديوان الحماسة (المرزوقي) ٢٢٨ وسمط اللآلي ٣٥/١ والمفضليات ١٢٨.

١١ - انظر مثلاً: الحماسة البصرية ١٤١/١.

obeikandi.com

فالفرسان يمشون إلى الحروب التي خبروها مشي[1] الأسود كما يقول قيس بن الخطيم في صفة جماعة من قومه الأوسيين[2]:

أَتَتْ عُصْبَةٌ لِلأَوْسِ تَخْطِرُ بِالقَنَا كَمشْيِ الأُسُودِ فِي رَشَاشِ الأَهَاضِبِ

فمشهد الأسود يثبت جملة من الصفات التي تحلى بها الفرسان[3]، مثلما كان الأسد الواسع الأشداق المتورد الجبين، الحريص على طعام جرائه أقل عظمة من الممدوح[4].

وبهذا كله فالأسد صورة لجملة من الصفات المعنوية في الشعر الجاهلي، ولعل الرهبة والبأس والقوة تزداد في هيئة الأسد المخدر[5] والمشبل. وهذا أبو الفضل الكناني يسخر من رجل رهقه العدو على فرس ضعيف، وكأنه يرى أمامه ليثاً من ليوث خفّان هذه صفته[6]:

فنَهْنَهْتُ عنه القَوْمَ حتَّى كأَنَّما حَبَا دُونَهُ لَيْثٌ بِخَفَّانَ خَادِرُ

شَتِيْمٌ أَبُو شِبْلَيْنِ أَخْضَلَ مَتْنَهُ مِنَ الدَّجْنِ يَوْمٌ ذو أَهَاضِيْبَ مَاطِرُ[7]

يَظَلُّ تُغَنِّيْهِ الغَرَانِيْقُ فَوْقَهُ أَبَاءٌ وغِيْلٌ فوْقَهُ مُتآصِرُ[8]

فالأسد عابس الوجه بلَّلَ ظهره مطرٌ كثير وهو خادر في عرينه بخَفَّان تلفه

---

١ - انظر مثلاً: شرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٥١.

٢ - ديوان قيس بن الخطيم ٢٢٧.

٣ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١١٩ وأوس بن حجر ١١٨ وعبيد بن الأبرص ٨٦ وطرفة بن العبد ٦٢ وسلامة بن جندل ٢٥٩ وعنترة ٣٤٠ وعامر بن الطفيل ٤٥ ودريد بن الصمة ٨٠ والأعشى ٢٨٣ و٢٨٥ والنابغة الذبياني ١٢٨ وشعر خداش بن زهير ٦٧ والنابغة الجعدي ٢٤٩ وقصائد جاهلية نادرة ١٥٧.

٤ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٤٩ و١٦٩ والأعشى ٢٢٧- ٢٢٩ و٢٥١ وشعر زهير بن أبي سلمى ١٢٠ و١٨٧ والمفضليات ٦٣ ق١١ وقصائد جاهلية نادرة ١٧٠.

٥ - راجع ما تقدم من البحث ١٥٩.

٦ - الأصمعيات ٧٧ ق٢٠.

٧ - الشتيم: الكريه الوجه، أي العابس. وأَخضَلَ مَتْنَه: بَلَّ ظهره. والدَّجْن. المطر الكثير. وأهاضيب ماطر: دفعات من المطر.

٨ - الغَرَانيق: جمع غُرْنوق، وهو طير الماء. والأَبَاء: جمع أَباءَة، وهي أجمة القَصَب. والغِيْل: الشجر الكثيف. ومتآصر: مُلْتَفّ.

obeikandl.com

الأشجار، والطيور مجاورة له تغنيه.

وعمد الشعراء إلى تصوير الفرسان المعدودين[1] بالمشبل المخدر من الأسود، ولعل ذكر المأسدة وحدها[2] يوحي بالرعب من ساكنيها. فالخنساء مثلاً اتخذت من أُسْد (بيْشَة) ملاذاً لها لإظهار صفات أخيها صخر[3] في رثائها له. ولا تختلف الخنساء عن غيرها ممن تعرضوا لذكر الأسد في بيت واحد ـ غالباً ـ مرددين عدداً من الصفات كالبأس والثبات وحماية القوم دون أن يؤبه للأعداء[4].

وذلك يجعلنا ننتقل إلى مشهد يحمل روح الإعجاب بصفات هِزْبَر مُشْبل ومُخْدِر، واسع الأشداق جريء شديد المراس، سدَّ طرق الغزاة في البر والبحر. وإذا زأر لزمت الأسود الأخرى عرينها، وكأنه لا أحد بها، وتتبلج هذه الصورة فإذا هي صورة صخر بن الشريد في قول الخنساء[5]:

وأحيا من مُخَبَّأَةٍ كَعَابٍ ... وأشجَعَ من أبي شِبْلٍ هِزَبْرِ[6]

هَرِيتِ الشِّدقِ رِئبالٍ إذا ما ... غَدَا لم تُنْهَ عَدْوَتُهُ بزَجْرِ[7]

---

١ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٧٢ وعبيد بن الأبرص ٨٢ و٨٦ و١٣١ وقيس بن الخطيم ٥٠ و٧٠ و٢٣١ ودريد بن الصمة ١١ وشعر زهير بن أبي سلمى ٢٦٥ وخداش بن زهير ٤٥ و٩٤ والمفضليات ٦٥ ق١٢ و٢٠٢ ق٤٠ والمنصفات ١٣٧ وقصائد جاهلية نادرة ١٥٢.

٢ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٤٩ و١٦٩ وقيس بن الخطيم ١٤٠ والمزرد ٧٧ وشعر زهير بن أبي سلمى ١٢٠ وسمط اللآلي ٣٥/١ ورسالة الصاهل والشاحج ٥٣٣- ٥٣٤.

٣ - انظر مثلاً: ديوان الخنساء (صادر) ٣٤ و٦٠ و٧٢ و٧٥ و٧٩ و١٠٨ و١٠٩ و١١٧.

٤ - انظر مثلاً: ديوان دريد بن الصمة ١٠٣ و١١١.

٥ - ديوان الخنساء ٤٦ (صادر).

٦ - المُخَبَّأة: المراة المحتمية في الخباء. والكَعَاب: الناهد. والهِزَبْرُ: الأسد.

٧ - هَرِيت: واسع. والرئبال: من صفات الأسد، وهو من الجرأة، وهو أن يمشي منكفئاً على جنب. ولم تُنْه: لم تُرَدَّ.

openkandil.com

ضُـــبَارِمَةٍ تَوَسَّـــدَ ســـاعِدَيْهِ علـى طُـرُقِ الغُـزاةِ وكُـلِّ بَحْـرِ[1]
تَـــدِينُ الخَـــادِراتُ لـــهُ إذا مَـــا سَـــمْعِنَ زَئِـــيرَهُ فِي كُـــلِّ فَجْـــرِ[2]
قَواعِـــدُ مـــا يُلِـــمُّ بهـــا عَريـــبٌ لِعُـــسْرٍ فِي الزَّمـــانِ ولا لِيُـــسْرِ[3]

فالخنساء تطيل الحديث عن صفات الأسد الحسية إظهاراً للصفات المعنوية عامة وإظهاراً لصفات صخر خاصة. ومثل هذا فعل عبيد بن الأبرص الذي ابتلي به أعداؤه وكأنه ليث لا يرام عرينه. فهو أبو الشبلين ترقبه الأسود الرابضة خوف الموت بعد أن ترك قسماً منها مدقوق العنق غارقاً في الردى ومنها المؤمِّل في النجاة[4]. وكان عروة بن الورد قد ألمَّ بصفات الأسد حين تمنَّى أعداؤه أن يقصم عظمه ليث عَثَّر[5].

ولعله من الطريف الإشارة إلى قصيدة وقفت عند صفة لقاء بين الأسد وعمرو بن معد يكرب، وقد اختلطت أبياتها بأبيات قصيدة لبطل من أبطال مقامات بديع الزمان الهمذاني[6]. وفيما قيل فيها إن عمراً كان يطلب مَهْراً لابنة عمه لميس فعرض له أسد، وبعد مصاولة ومحاولة قتل عمرو الأسد[7]، ومما نُسب إليه[8]:

تظـــنُّ لمـــيسُ أنَّ اللَّيْـــثَ مِثْلـــي وأَقْـــوَى هِمَّـــةً وأَشَـــدُّ صَـــبْرا
لقَـدْ خابـت ظنـونُ لَمِـيْسَ فيـهِ وأَضْـحى البَـرُّ خـالِيْ مِنْـهُ صِـفْرا

وعلى شكنا في باقي المشهد فإنه يوحي إلينا بأن الرجل في البيت كان ينعت بالليث[9]. وقد يُوصف قومُ الرجل بالأسود التي هجمت على واحد من ذويهم بينما

---

١ - الضُّبَارِمَة: الشديد الخَلْق من الأسود.

٢ - الخادرات: الأسود الملازمة عرائنها.

٣ - ما يلم بها عَرِيْبٌ: أي ما بها أحد.

٤ - انظر ديوان عبيد بن الأبرص ٩٠.

٥ - انظر ديوان عروة بن الورد (صادر) ٣٤.

٦ - انظر شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني ٤٦٢ والأمالي الشجرية ١٩٢/٢ والحماسة البصرية ١٠٤/١ وحياة الحيوان الكبرى ٣٨٨/٢.

٧ - القصيدة كاملة في شعر عمرو بن معد يكرب ١٩٠- ١٩١.

٨ - شعر عمرو بن معد يكرب (الحاشية) في ص ١٩١ وشرح مقامات بديع الزمان (الهامش) ٤٦٣.

٩ - انظر مثلاً: المفضليات ١٥٨ ق٣٠.

يكونون أذلة على الأعداء[1]، على حين توصف المرأة باللبؤة ـ ولو كان هذا نادراً ـ، كما هو مشهد اللبؤة وجرائها في شعر الجُمَيْح. وفيه يشبه امرأته بلبوة تمنع غِيْلَها الذي يضم جراءها فلا يتجاسر أحد على إيذائها. فهي تحيط بأولادها مثل اللبوة المشبل[2]، وهذا الوجه أشد لنزقها، وأكثر غضباً. وهذه حالها في السلم أما في الحرب فهي كالصبي لا يهتدي أن يفر من الذئب، فيقول الجُمَيح[3]:

أَمَّا إِذَا حَرَدَتْ حَرْدِي فَمُجْرِيَةٌ جَرْدَاءُ تَمْنَعُ غِيْلاً غَيْرَ مَقْرُوبِ[4]

وإِنْ يكُنْ حَادِثٌ يُخْشى فذُو عِلَقٍ تَظَلُّ تَزْبُرُهُ مِنْ خَشْيَةِ الذِّيْبِ[5]

فعَلى طرافة هذا المشهد وحديثه عن المشاعر النفسية للجميح فإنه يذكّر المرء بمشاهد أخرى طريفة تغاير فنياً ما ورد في مشهد الأسد المخدر، ولكنها تأخذ منه بحبل. فشارب الخمرة يشعر بأنه ليث في أول الليل على حين يتهالك كالضِّبْعَان في آخر الليل[6].

ومهما يكن شأن ما تقدم في مشاهد الأسد فإن أبا زُبيد الطائي بقي وحيداً في هذا الباب سواء في كثرة[7] ذكره للأسد بصوره كلها، منفرداً أو هو وأشباله أو في عرينه أم في عرض صفاته الحسية التي تلقي الرعب في نفس كل قارئ وسامع. بل إنه ليحس بهول الموقف وكأنه أمام أسد حقيقي يساوره عن نفسه.

وكان عثمان بن عفان (رضي الله عنه) قد لمس مثل ذلك حين استنشد أبا زبيد إحدى قصائده في وصف الأسد[8].

---

١ - انظر مثلاً: ديوان عروة بن الورد (صادر) ٢٦.

٢ - انظر مثلاً: الفُصول والغايات ١٣٩، وسمط اللآلي ١/ ٣٠- ٣١.

٣ - المفضليات ٣٥ ق٤ وشرح المفضليات ١/ ٦٦ مع الخلاف في الرواية.

٤ - حرَدَتْ حَرْدي: قصدت قصدي. والمُجْرِية: ذات الجِرَاء. والجَرْدَاء: المتساقطة الشعر. والغِيْلُ: الأَجَمَة والشجر المتلف.

٥ - العِلَق: جمع عِلْقَة، وهو القميص الذي لا أكمام له، ويُتَّخذ للصغير. وتَزْبُره: تزجره.

٦ - انظر مثلاً: الأصمعيات ١٥٣ ق٥٢.

٧ - انظر شعر أبي زبيد الطائي ٥٩٠ و٥٩٦ و٦٠١ و٦٠٦-٦١١ و٦١٩ و٦٢٣-٦٢٦ و٦٣٠-٦٣٤ و٦٤١-٦٤٨ و٦٦٢.

٨ - انظر طبقات فحول الشعراء ١٣٢ و٥٠٥ والحيوان ١/ ٣٥٤ والنوادر ٣/ ١٨١ وخزانة الأدب ٣/ ٣٠ والأغاني ١٢/ ١٣١ والحماسة البصرية ٢/ ٣٣١.

ومن أمثلة هذا قوله[1]:

عَبُوسٌ شَمُوسٌ مُصْلَخِدٌّ مُكابرٌ جَريءٌ على الأَقْرانِ للقِرْنِ قاهرُ[2]
مَنِيْعٌ ويَحْمي كُلَّ وادٍ يَرومُهُ شَديدُ أُصُولِ المَاضِغِيْنَ مُكابرُ[3]
بَراثنُهُ شَثْنٌ وعيناه في الدُّجَى كجَمْرِ الغضَا في وَجْهِهِ الشَّرُّ ظاهِرُ[4]
يُدِلُّ بأنْيَابٍ حِدَادٍ كأنَّها إذا قَلَّصَ الأَشْداقَ عنها خَناجِرُ

فهذا المشهد يدل على أن أبا زُبيد رأى الأسد وعاين صورته، فهو يجري وراء الوصف الدقيق مثل عروة بن الورد[5]، ولكن وصف الجزئيات عند أبي زبيد أظهر، وأجود. ولهذا كله: "عُدَّ من أوائل الشعراء الذين عُنُوا بوصف الأسد"[6].

وإذا كان لنا من كلمة أخيرة في مشهد الأسود فهي أن بعض العرب فيما بعد رغبُوا عن التشبه بالأسد الأبخر والصقر الجارح، وحثوا الشعراء على وصفهم بالصفات المعنوية المحمودة[7].

وبهذا ظل مشهد الأسد مثاراً لعدد من الصور الشعرية، وصار له جبهة في السماء وبرج للحظ يجلب للناس الأماني[8]، ونار تسمى نار الأسد يصيدونه بها[9].

ذلك ما كان في مشهد الأسود، ولعل مشهد الذئاب أغنى بتنوع الصور المعنوية منه.

---

١ - شعر أبي زبيد ٦١٢- ٦١٣.

٢ - الشموس: الصعب الخُلق. والمُصْلَخِدُّ: المُنتصِب قائماً.

٣ - الماضغان: الحنكان، وقيل هما أصلا اللَّحْيين عند مَنْبت الأضراس.

٤ - شَثْن البراثن: خَشِنُها.

٥ - انظر ديوان عروة بن الورد ٣٤ (صادر) وشعر أبي زبيد ٥٧٢.

٦ - شعر أبي زبيد، ٥٧ وانظر الأغاني ١٢/١٢٧- ١٣١.

٧ - انظر المصون في الأدب ٦٢- ٦٣.

٨ - انظر ديوان بشر بن أبي خازم ٥٦ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٥٨.

٩ - انظر خزانة الأدب ٣/٢١٢- ٢١٣.

obeikandl.com

٣- مشهد الذئاب

الذِّئْب أو الذيب[١] مفرد يجمع غالباً على ذِئاب وذُؤْبان، ووحداته ذِئْبة[٢]. والذئب أشهر أسمائه وإن عرف له غير ما واحد منها كالسِّرْحان[٣] والسِّيْد[٤]، وأَوْس[٥]، والنَّهْسر[٦] وأَطْلَسَ[٧]، والسِّمْع[٨]. وقيل: إن السِّمْع سَبُع مركب مثل النَّهْسَر، وهو ولد الذئب من الضبع، وضُرب المثل بالسِّمْع: "أَسمْع من سِمْع[٩]". وحكي عنه أنه لا يموت حتف أنفه، وجمع الجرأة والخبث والقوة والشدَّة والسرعة فوق ذلك.

وكنية الذئب أبو جَعْدة، وعلى حسنها لم تشرفه لأن فعله قبيح كالخمرة التي تكنى أم الطَّلا[١٠]. ولقبه مع الغراب الأصرمان لانقطاعهما عن المخلوقات[١١].

ومن هنا يبدو أن الذئب أبداً مستوحش يرقى الأماكن التي لا تصل إليها رجل آدمي، وكأن العداوة بينهما مُستْحكمة؛ فهو أحرص الحيوانات المفترسة على الإنسان إذا عرض له وهو جائع، بل يحدث له من الاستجاشة[١٢] ما يجعله يعتدي على أبناء جنسه ويأكلهم.

---

١ - انظر اللسان (ذأب) وديوان امرئ القيس ٢٢٩ ودريد بن الصمة ٣٧.

٢ - انظر اللسان (ذأب) وديوان الأعشى ١٣٩ وانظر حياة الحيوان الكبرى ١/٣٥١و٣٥٩.

٣ - انظر اللسان (سرح) وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٤٥.

٤ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٣١٥ ودريد بن الصمة ٥٠ والمفضليات ٢٨٠ ق٧٣.

٥ - انظر مثلاً: اللسان (أوس) وحياة الحيوان الكبرى ١/١٠٥ و٣٥٩ وسمط اللآلي ٤٣٧.

٦ - انظر مثلاً: اللسان (نهسر) وشعر النابغة الجعدي ٣٩.

٧ - الأَطْلَس: الأَغبر، وهو من الطَّلْس، أي الغبرة التي تميل إلى السواد. وسمي الذيب به من باب الصفات ومثل هذا (الأَغْبَس والعَملَّس والعَسْعَساس)، وغير ذلك، انظر اللسان (عسعس وعملس وغبس) وديوان الأعشى ٣١٥وحياة الحيوان الكبرى ١/٣٥٩.

٨ - انظر مثلاً: الأصمعيات ٥٤ ق١٢.

٩ - انظر اللسان (سمع).

١٠ - انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ١١ و٢١ ومجمع الأمثال ١/٢٧٧ وحياة الحيوان الكبرى ١/٣٥٩.

١١ - انظر اللسان (صرم) ومحاضرات الأدباء ١/٤٤٩.

١٢ - الاستجاشة: طلب النصرة من أبناء جنسه.

obeikandl.com

ويعرض مشهد الذئاب في القصيدة الجاهلية لذلك كله، وحين يعمد الشعراء إلى إبراز الصفات الحسية وهي كثيرة فإنما يريدون منها تأكيد جملة من الأمور المعنوية التي أسقطوها على الأشخاص...

ولهذا ظهرت صفة العواء، وهيئته الرثة[1]، والهزيلة، ولونه[2] ولا سيما حين يكون الحديث عن مشاهد الصيد. وتوقف المشهد عند الذئاب التي جعلت[3] الأغنام هدفاً لها، وجعلت العواء سبيلها إلى إخبار بعضها بعضاً بالغنيمة.

ولذلك كله فليس في خلق الله ألأم من الذئب، وأخبث وأغدر وأظلم، وعلى الرغم من ذلك فإن الشعراء أكرموه في تلك البادية ونبذوا إليه جزءاً من شوائهم فخرج كرمهم إلى من لا يستحقه.

ولعل الوقوف عند نماذج من الشعر الجاهلي يوضح ذلك، ولا سيما أن مشاهد الذئاب كانت أوفر حظاً من غيرها، لأننا نقع على أكثر من مشهد طويل يحدثنا عن اقتران صفة الذئب بالبشر[4] أو الخيل[5]، أو غيرهما. فالذئب اشتهر بالعَدْو وسرعة الخطف والكر على الفريسة حتى صارت صفة العادي[6] كالعَلَم له. ومشيته تشبه[7] مشية النعامة، أما عسلانه[8] إلى موارد الماء ليلاً فأشهر من أن يذكر. ورؤية الدم في صاحبه تحدث له طمعاً "وقوة يعدو بها على الآخر، ومن أمثال العرب:

---

١ - انظر مثلاً: المفضليات ١٤٣ ق٢٦.

٢ - انظر الحيوان في الشعر الجاهلي ٩٢ و٩٨ و١٠١ و ما بعدها.

٣ - انظر الحاشية السابقة.

٤ - انظر النوادر (للقالي) ٢٠٤ و ما بعدها وانظر الأمالي الشجرية ٢٠١/٢ وما بعدها، وشرح ديوان الحماسة (المرزوقي) ٩٢/١.

٥ - راجع ما تقدم ١١٩ وانظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٦ وتأبط شراً ٢٤٩ وعبيد بن الأبرص ٢٥ و(صادر) ٣٨ ودريد بن الصمة ٥٠ والأصمعيات ٥٤ ق١٢.

٦ - انظر اللسان (عدو).

٧ - انظر الحيوان ٣٣٥/٤ و٣٨٩.

٨ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٣٢١ وقصائد جاهلية نادرة ٩٥.

obeikandl.com

"وهو أعق من ذِئْبة[1]". فالذئب يتهارش مع زميل له، ومن طبعه أنه إذا أدمى أحدهما الآخر عدا المنتصر على المدمى فقتله ومزقه[2]، وعرض له بالنظر خَوَراً أو نَخْباً. وقد استفاد طرفة بن العبد من ذلك حين تحدث عن رجل من قومه قائلاً[3]:

فتىً ليْسَ بابْنِ العَمِّ كالذِّئْبِ إنْ رأَى بصَاحِبِه يَوْمَاً دَمَاً فهْوَ آكِلُهْ

فهو مطبوع على الاستجاشة والغدر وحب الانتصار، فإذا عجز عن إنسان ما عوى عواء استغاثة، فتسامعت له الذئاب حتى تعكف على من يريد فتفترسته[4]. ولذلك كله فهو عدو للإنسان، ولعل في رثاء رجل لأمه ما يؤيد عداوته له وكان الذئب أكلها[5]:

فيا جَحْمَتا بَكِّي عَلى أُمِّ وَاهبٍ أَكِيلةِ قِلَّوبٍ بِبَعْضِ المَذَانبِ[6]

أُشِبَّ لها القِلِّيْبُ مِنْ بَطْنِ قَرْقَرَى وقَدْ تَجلبُ الشَّيْءَ الجَوالِبُ

والحذر لديه أشهر من أن يذكر، فهو ينام بإحدى عينيه[7]، حتى ضُرب به المثل: "أحذر من ذئب[8]".

---

١ - ثمار القلوب ٣٨٩ وجمهرة الأمثال ٦٩/٢.

٢ - انظر محاضرات الأدباء ٦٩٣/٤ والفصول والغايات ٣٣٢ ومجمع الأمثال ٣٤٩/١ والنَّخْب: الجبن.

٣ - ديوان طرفة ١٨٨، ونسب الشعر إلى العُجير السلولي وزينب بنت الطثرية، انظر جمهرة الأمثال ٦٩/٢ حاشية رقم ٢ وسمط اللآلي ٢٤٣/١. سمط اللآلي ٣٧٨/١ وانظر الأمالي للقالي ١٣٦/١ ورسالة الصاهل والشاحج ٦١٩، وذهب المعري فيه إلى أن الشعر ورد لأمٍّ ترثي ابنتها وقد أكلها الذيب، وهذا وذاك نادر.

٤- انظر اللسان (عس) والبيان والتبيين ١٥٢/٢ والأمالي للقالي ١٨٥/٢ والمفضليات ٣٥ ق٤.

٥ - سمط اللآلي ٣٧٨/١ وانظر الأمالي للقالي ١٣٦/١ ورسالة الصاهل والشاحج ٦١٩، وذهب المعري فيه إلى أن الشعر ورد لأمٍّ ترثي ابنتها وقد أكلها الذيب، وهذا وذاك نادر.

٦ - الجحمتان: العينان، وهي لغة أهل اليمن، وعليها القِلّيبْ، والقِلَّوْب: وهو الذئب، انظر اللسان (قلب)، والبيتان فيهما إقواء.

٧ - انظر الحيوان ٤٦٧/٦ وانظر مثلاً: ديوان تأبط شراً ١٥٢.

٨ - انظر مجمع الأمثال ٢٢٦/١ وجمهرة الأمثال ٣٩٦/١.

obeikandl.com

وصفة الحذر والجرأة تدل على الشجاعة والحِلْم، ولهذا نُعت بهما المرثي[1]، بمثل ما نُعت بهما الصياد[2]، كقول امرئ القيس[3]:

بَعَثْنَا رَبِيْئَاً قَبْلَ ذَلِكَ مُخْمِلاً كَذِئْبِ الغَضَى يَمْشِي الضَّرَاءَ ويتَّقي[4]

فالصياد الذي شاكل لونه لون الذئاب يضائل شخصه، ويحرص في حركته على ألا يصدر منها أي صوت[5]. ويظهر هذا على أنه طبع له، فيه من القدرة ما فيه من الافتخار. وتختلط الصفات بين البشر والذئب، فهم أقبلوا على الدنيا بجرأة أعظم مما اشتهر به دون أن يفطنوا لمصيرهم المحتوم[6]، وأوغلوا في الثأر كولوغ الذئب[7].

ويدل مشهد الذئاب على أن الصفات المتقدمة التي يُشَمّ منها رائحة مدح لم تخرجه من باب الغدر والخيانة والخبث حتى قيل فيه: أغدر من ذئب، وخاصة ذئب الخَمَر والغضا[8]. وصفة الغدر مرتبطة بالعواء، فإذا عوى الذئب طار فؤاد حيوان وحشي مسالم[9]، مثلما يثير ذلك الخوف في قلب البشر ولا سيما رعاة الأغنام. فالذئاب طالما ضَرَبت بها على غيْر هدي، وهي تعوي إذا لم تعرف مواطن الأنْعَام ويستدعي بعضها بعضاً إذا عثرت عليها[10].

---

١ - انظر مثلاً: المفضليات ٣٢٢ ق٩٢.

٢ - انظر مثلاً: المفضليات ق٢٦.

٣ - ديوان امرئ القيس ١٧٢.

٤ - الرَّبيء: الذي ينظر الصيد من مكان مرتفع. المُخْمِل: الذي يستر نفسه. ويمشي الضَّرَاء: يختال.

٥ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٨٤ والأعشى ١٤١ و١٥٧ و٣١٥ وشعر زهير ـ٥ وشرح ديوان لبيد ١٤٥.

٦ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٩٧.

٧ - انظر مثلاً: قصائد جاهلية نادرة ٧٢ واللسان (ولغ).

٨ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٦٧ وطفيل الغنوي ٦٣ وطرفة ٣٣ وعنترة ٢٩٠ والحيوان ١٥١/٤ و٤١٠/٦، وخمر: ما واراك من الشجر والجبال، انظر اللسان (خمر).

٩ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٣٩٧، والعُواء أخص بالذئب، انظر الحيوان ٣٧٨/١- ٣٧٩ واللسان (عوى).

١٠ - انظر مثلاً: ديوان طفيل الغنوي ١٢٣ وسلامة بن جندل ١٠٤ وحميد بن ثور ١٠٣ ونهاية الأرب ٣٢١/٩.

obeikandl.com

وقد سخَّر الله لها ذكاء لذلك، فهي تدرك بطبعها أن كلاب الأغنام تستسلم للنوم في الصباح، ويبيت أصحاب الأغنام خائفين عليها[1]. على حين أن الذئاب تعرف من لا يملك منهم كلاباً فتجعلهم صيداً سهلاً، كقول النابغة[2]:

تَعْدُو الذِّئَابُ عَلى مَنْ لا كِلاَبَ لَهُ وتَتَّقِي مَرْبِضَ المُسْتَثْفِرِ الحَامِي[3]

واستغل الشعراء هذه الصور الطبيعية وأعلنوا المشابهة بين الأعداء والأغنام[4]، كقول وَرْقاء بن زهير إذ جعل العداء بين الذئب والغنم مثلاً له ولأعدائه[5] من بني كلاب:

أَمَّا كِلاَبٌ فإِنَّا لا نُسالِمُهَا حتَّى يُسَالَم ذِئْبَ الثَّلَّةِ الرَّاعِي

وتستقي المشاهد من الذئب طباعه و صفة الخبث والغدر وعدم المسالمة عنده، و هي صفات تتعزز لديه في الليل خاصة. ولهذا ضُرب به مثلاً في الظلم والفجور، ولم يكن بريئاً إلا مرة واحدة، وهي براءة نادرة وفريدة لا شبيه لها في الشعر الجاهلي. وتمثلت بالتهمة التي وجهها إخوة يوسف للذئب بقتله أخاهم يوسف[6]، فصار مشابهاً لمن يُرمى بذَنْب جناه غيره[7].

ولعل ظُلْم الذئب واقترانَهُ بالأفاعي[8] بهذه الصفة، وشهرةَ فجوره وخيانته، واستغلالَ غَفلة الإنسان[9] والكلابُ أكبر من أن تبرئ مواقفه في الأذهان.

---

١ - انظر صحيح البخاري ٤/٢٤٤.

٢ - ديوان النابغة الذبياني ت(د. فيصل) ٢٢٢ وانظر ت. (أبو الفضل إبراهيم) ٢٤٥ ونُسب إلى غيره، انظر حياة الحيوان الكبرى ١/٣٦٠.

٣ - المُسْتَثفر: الكلب الذي يدخل ذنبه بين فخذيه حتى يلزقه ببطنه.

٤ - انظر مثلاً: ديوان عامر بن الطفيل ٥٠.

٥ - الأغاني ١١/٩٠.

٦ - انظر سورة يوسف ١٢/١٠٠.

٧ - قيل: إن اسم الذئب رَغْمُون، انظر ثمار القلوب ٤٦ و٥٤.

٨ - انظر الحيوان ٤/١٥٠- ١٥٢ ومجمع الأمثال ١/٤٤٥- ٤٤٦ وجمهرة الأمثال ٢/٣٠.

٩ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ١٤١ والحيوان ٤/١٥٠- ١٥.

obeikandl.com

ولا شيء أدل على هذا من قول عَوْف بن الأحوص[1]:

لَمَّـــا دَنَوْنَـــا للقِبَـــابِ وأَهْلِهـــا أُتِـيْحَ لنَـا ذِئْـبٌ مـعَ اللَّيْـلِ فـاجِرُ

ويجعل أوس بن حجر تلك الصفة مدعاة في افتخاره، فهو لا يعيث فساداً في قومه، ولِنَسائهم السلام يذب عنهن كلما هجع النّيام ورقدوا، فيقول[2]:

وَلَـسْتُ بـأَطْلَسِ الثَّـوْبَيْنِ يُـصْبِي حَلِيلَتَـــهُ إذا هَجَـــعَ النِّيـــامُ[3]

وربما قوّت هذه المشاهد صفة الرمز إلى اللصوصية الممثلة بالذئب فوْق ما يرمز إلى الفساد والعدوان. وعلى الرغم من ذلك فإن من يسرِّح نظره في الشعر الجاهلي يجد أمراً طريفاً قد يكون غريباً وشاذاً بيد أنه في عرف الجاهلي حقيقة ثابتة. فقد وصل كرمه إلى الذئاب رمز اللصوصية والفجور والغدر وبذا نال كرمه من لا يستحقه، ومَرَدُّ هذا يعود إلى كره العربي للجوع والبخل. فالذئب أو اللص إذا يئس من صيد وأضحى بائساً لا ينقذه إلا منظر نار في قفر موحش، بعد أن تناهت رائحة الشواء إلى أنفه. لهذا رأيناه ينقل خطواته ليطلع على ما يكون من أمر تلك النار، وحينما أشرف عليها وجد نفراً بينهم المرقش الأكبر الذي أشفق عليه، فنبذ إليه قطعة من الشواء، فإذا وجهه يتهلل كأنه بطل شجاع فاز بنَهْب من قتال. فالمرقش حظي بشرف إطعام سباع الأرض ولصوصها، وطابت نفسه لأنه أدى واجبات الضيافة التي فُطر عليها العربي، فهو لم يضن بطعامه على عدوه وإن أيقن أنه غير مستحق له فقال[4]:

ولَمَّـا أَضَـأْنَا النَّـارَ عِنْـدَ شِـوائِنا عَرَانَـا علَيْهَـا أَطْلَـسُ اللّـوْنِ بَـائِسُ[5]

---

١ - المفضليات ٣٦٥ ق١٠٨ وشرح المفضليات ١٢٤٥/٣.

٢ - ديوان أوس بن حجر ١١٥ وانظر فيه أيضاً ٧٥.

٣ - أطلس الثوبين: أي أراد بالطَّلسة ـ وهي الكَدْرة في غبرة ـ أنه ليس دَنِس الثياب، انظر سمط اللآلي ٩٠/١ و٦٦٣/٢.

٤ - المفضليات ٢٢٦ ق٤٧ وشرح المفضليات ٨٢٥/٢ على اختلاف الرواية في بعض الألفاظ.

٥ - عرانا: أتانا طالباً معروفنا. والبائس: الهزيل.

obeikandl.com

نَبَـذْتُ إليـهِ حُـزَّةً مِـنْ شِـوَائِنا حَيَاءً، وما فُحْشِي عَلى مَنْ أُجَالِسُ[1]

فـآضَ بهـا جَـذْلانَ يَـنْفُضُ رأْسَـهُ كما آبَ بالنَّهْبِ الكَمِـيُّ المُحَـالِسُ[2]

ويستوقفنا المشهد مرة أخرى إثباتاً منه بأن المرقش قدم من شوائه المخصص له حق الضيافة[3]. ولعله كان رائداً لهذا المذهب[4] الشعري، إذ فتح باب القول في هذا الاتجاه لمن جاء بعده كعمرو بن الصَّعِق[5] وأبي كبير الهذلي وتأبط شراً الشنفرى في الجاهلية، وحميد بن ثور والنجاشي[6] وأسماء بن خارجة[7] بن حِصْن الفزاري في صدر الإسلام والفرزدق ومالك بن الريب والقتال الكلابي والأحمر السعدي وكُثَير عزة من العهد الأموي، والبحتري والشريف الرضي من العصرالعباسي[8].

وقبل الوقوف عند مشهد الذئب في شعر تأبط شراً والشنفرى لا بأس من الإشارة إلى مشهد الذئب في شعر أسماء بن خارجة. فالمشهد أبدع في تناول الصفات

---

١ - الحُزَّة: القِطعة. وما فحشي على من أجالس: أي لم أعتد أكل طعام أحد كرهاً.

٢ - آضَ: رجع. والجذلان: الفَرِح النَّشِط. والنَّهْب: الغنيمة. والكمِيُّ: الشُّجاع. والمُحالس: الفارس الشديد الذي لا يبرح مكانه في الحرب، ويروى في (شرح المفضليات) المخالس: وهو من الاختلاس، والوجه الأول أحق أن يُتَّبَع.

٣ - لعل من أشهر القصص في ذلك مكلم الذيب أُهبان بن أوس السُّلَمي، وكان الذئب أغار على غنم له فجرى حوار على غاية في الدلالة حول الرزق المقسوم لكل مخلوق، انظر (ثمار القلوب ٣٨٦) وحياة الحيوان الكبرى ٣٦٢/١ وصحيح مسلم ١٥٦/١٥- ١٥٧ وهناك معتقدات كثيرة أخرى؛ انظر الحيوان في الشعر الجاهلي ٢٤٠ وما بعدها.

٤ - وقد أضاف كعب بن زهير إليه عمقاً جديداً حين جمع بين الذئب والغراب في مشهد مماثل، انظر شرح ديوانه ٤٦- ٥٢ وانظر ديوان تأبط شراً ١١٥ و ١٢٠ و ١٨١ .

٥ - انظر مجمع الأمثال ٩٩/٢-١٠٠ ونسب أبيات المرقش إلى عمرو بن الصعق ولامية العرب ٧ وديوان الهذليين ١٠٥- ١٠٦.

٦ - انظر المعاني الكبير ٢٧٠/١ وسمط اللآلي ٨٩٠ وخزانة الأدب ٣٦٧/٤ ورسالة الصاهل والشاحج ١٦٥ والإصابة ٢٥٣/٦ وشرح شواهد المغني ٢٣٩.

٧ - انظر الأصمعيات ٥٠ ق١١، وشرح ديوان كعب بن زهير (المقدمة) ن.

٨ - انظر مثلاً: ديوان الفرزدق ٣٨٧/١ وديوان كثير عزة ١٢٢ والبحتري ٧٤٢/٢ والأغاني ٢٢ / ٢٩٥ - ٢٩٦.

obeikandl.com

الحسية والمعنوية وهو يحمل نهجاً جاهلياً في معانيه وجَوِّه النفسي، علماً أن لقاء الذئب يتماثل نفسياً في كل زمان ومكان وإن اختلفت مشاعر الأشخاص. فذئب أسماء بن خارجة شقي تدل هيئته عليه، إذ التصقت أمعاؤه ببطنه، لأنه ما أكل طعاماً لأيام طويلة. فحين أطل عليه عَنَّفه في أول الأمر ظناً منه أنه أراد الغدر، ثم تراجع لأن الذئب ألحَّ بحاجته، وأثبت مسالمته فهو لا يريد إلا حق الضيافة. وهنا نهض أسماء إلى ناقته التي تقله فعقرها وتركها هنيئاً مريئاً له ولعياله على شدة حاجته إليها وضرره منه دونها، فأخذ الذئب يعوي مُسْتَهِلاً بهذا الكرم[1].

ومن هنا يتعاظم الاستبشار في نفس العربي الذي قَدَّم ما لديه إلى ضيفه، أمَّا تأبط شراً الذي لا يملك شيئاً إلا نعله فإنه ما بخل بها على ذلك الذئب الذي آلمه الجوع، فلما طرحها له ولّى بها جذلان. وإذا كان المرقش قد أبدع في عرض الصفات المعنوية مخلداً بها كرم الضيافة العربية فإن تأبط شراً اتجه في مشهد الذئب اتجاهاً خاصاً يحكي فيه حياة التشرد وندرة الطعام. فكل من الذئب وتأبط شراً عوى من عضَّة الجوع، وكأن كل واحد منهما يشكو حاله إلى الأخر مما آل إليه[2]، فيقول[3]:

ووادٍ كجَوْفِ العَيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ ... بِهِ الذِّئْبُ يَعْوِي كالخَلِيعِ المُعَيَّلِ[4]

فقُلْتُ لَهُ لَمَّا عَوَى: إنَّ ثابتاً ... قَلِيلُ الغِنى إنْ كُنْتَ لَمَّا تَمَوَّلِ

كِلانا إذا ما نالَ شَيْئاً أَفاتَهُ ... ومَنْ يَحْتَرِثْ حَرْثي وحَرْثَكَ يُهْزَلِ

فهذا المشهد يعقد مشابهة طريفة بين حياة الصعلوك ونفسيته وبين حياة الذئب وطبعه، إذ يرسم حالة نفسية معبرة له[5]. ولا يطاول هذا المشهد إلا ما ورد في شعر

---

١ - هناك قصة مشابهة وقعت لجُوَيْرية بن أسماء، انظر رسالة الصاهل والشاحج ١٢٦.

٢ - انظر مثلاً: النوادر ٢٠٤ وديوان تأبط شراً ١١٥ و١٢٠ وشرح ديوان الحماسة (للمرزوقي) ٤٩٤/١ والأغاني ٣٧٨/٢٠.

٣ - ديوان تأبط شراً ١٨١-١٨٥ والشعر منسُوب لامرئ القيس، انظر الديوان ٣٧٢ وشرح المعلقات السبع ١١٠-١١٢ وشرح القصائد العشر ٧٠-٧١ وشرح القصائد المشهورات ٣٣.

٤ - الخليع: المُقامر. والمُعَيَّل: كثير المال.

٥ - الأبيات لتأبط شراً في خزانة الأدب ٦٥/١ والحماسة البصرية ٢٠٤/٢ واللسان (عصم) وبين

الشنفرى، فمشهد الذئب عنده يتفرد في هذا الباب، فهزال الذئاب دليل على القوة لا الضعف وكأنها القداح في المَيْسر، وطباعها مأمونة كطباع البشر.

ومن هنا تتضح براعة الشنفرى في القدرة على رسم ملامح حياة الذئاب وإتقان عرض صفاتها الحسية التي تنبئ بما تنطوي عليها نفوسها[1]. ولعل خُفاف بن نَضْلَة لا يقل ابتكاراً عنه، فالذئب عنده يستبشر بقتلى المعارك ويستهل لكثرتها، وتتعالى أصوات ضحكاته وضحكات الضباع التي شاركت النسور في الطعام، فامتلأت بطونها، فلا سباع الوحش قادرة على الحركة ولا النسور تقوى على الطيران[2].

وتقاسم الشعراء معطيات مشهد الذئاب التي تتحلق جثث القتلى، فترسم المأساة على قدر ما يفتخر المتحاربون بذلك[3]، كقول دريد بن الصمة[4]:

رَدَسْنَاهُمُ بالخَيْلِ حتَّى تَمَلأَّتْ عَوَافِي الضِّبَاعِ والذِّئابِ السَّوَاغبِ[5]

تلك هي التقاليد الفنية لمشهد الذئاب في القصيدة الجاهلية، وكلها تؤكد مفهوم الجاهليين وموقفهم من الذئاب التي رأوها عمداً أو مصادفة، وحُكِيت

نسبتها إليه صاحب "شرح القصائد السبع الطوال" ٨٠ وشرح القصائد العشر ٣٩، وهي لامرئ القيس في ديوانه (شرح الطوسي) ٣٧٢ وشرح المعلقات السبع ١١٠. وهي أليق بتأبط شراً وأثبت، ويكفي أن يكون الأصمعي وابن قتيبة قد رويا هذه الأبيات لتأبط شراً لنأخذ بذلك، ولم يثبتاها لامرئ القيس، انظر ديوان امرئ القيس ٨ ق١ و مابعدها و٣٧٢ والمعاني الكبير ٢٠٨/١، ونقد الشعر (لقدامة بن جعفر ١٧٦) وإن كان امرؤ القيس أحسن في إسقاط صفة الذئب على الخيل والعقاب، انظر ديوانه ٣٢٦ و٣٦٣، ورجح الأستاذ عبد الله الطيب نسبة الأبيات إلى امرئ القيس، انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب ٨٦١-٨٦٢.

١ - انظر مثلاً: النوادر ٢٠٦ وأعجب العجب ١٠٤-١١١ وشرح لامية العرب (العكبري) ١٦ و٣٧ و٥٢-٥٨.

٢ - انظر ديوان تأبط شراً ٢٥٠.

٣ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٢١٩ وديوان الهذليين ٧٩/٢ والمفضليات ١١٤ و٣٧٨ وقصائد جاهلية نادرة ١٥٢ وشعراء بني قشير ٢٢١/٢.

٤ - ديوان دريد بن الصمة ٢٩ والأصمعيات ١١٣ ق٢٩.

٥ - الرَّدْس: الرمي بالشيء الثقيل. والسَّوَاغب: جمع ساغب، وهو الجائع.

openkanal.com

القصص[1] حولها في السلم والحرب. ولكن مشهد الضبّاع والثعالب يتركز في القصيدة الجاهلية لإيضاح حياتهم الحربية غالباً، ويوضح افتخارهم بترك جثث أعدائهم طعاماً لها.

٤- مشهد الضباع والثعالب

يتشابه مشهد الضباع والثعالب في القصيدة الجاهلية، لأن هذه الحيوانات اشتركت في الخسة والدناءة، ورافقت الجيوش طمعاً في الغنائم من القتلى، وكذلك نبشت القبور طالبة طعامها فيها. ولما تميزت الضباع والثعالب بالشره وطلب البشر أحياناً تفردت الثعالب بالحنكة والروغان.

ومن هنا قل لمشهد الضباع والثعالب أن تعرض لصفاتها الحسية، أما من عرض لهذا فإنه أتى على تصوير يثير الرهبة من فعلها. ولم يحظ المشهد بأسمائها وإن عرض لعدد منها.

ولهذا كله لا بد من التعريف بها ثم الانتقال إلى التقاليد الفنية لمشهد الضباع والثعالب التي جاءت معبرة عن جملة من الظواهر الفكرية والاجتماعية. أما الضَّبُع فهو لفظ يقع على الذكر والأنثى ويجمع على ضِبَاع، وشاع للذكر أكثر من الأنثى، وإن كان عرف له اسم ضِبْعان، وأطلق على الأنثى ضَبْعَة[2]، وتكنى أنثى الضبع أم عامر[3]. ويبدو أن كثيراً من صفاتها انتقلت لتصبح أسماء لها لأنها مختصة بها دون غيرها كالجَيْأَل والعَرْفَاء والخَوامع والعُرْج[4].

والضبع ضَرْب من سباع الوحش يقارف الذئب شكلاً وحجماً على حين أن الثعلب دون حجم الكلب. والثعلب نوع آخر من سباع الوحش يقع على الذكر والأنثى، وقيل

---

١ - انظر مثلاً: حياة الحيوان الكبرى ١/٦٣٢- ٦٣٦.

٢ - انظر اللسان (ضبع) والحيوان ١/١٤٣ وحياة الحيوان الكبرى ٢/٨١ وانظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢١٦ والأصمعيات ١٥٣ و٢٣٦.

٣ - يطلق على الضبع عدد من الكنى أيضاً، انظر حياة الحيوان الكبرى ٢/٨١.

٤ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١١١ وعروة (صادر) ٤٧ وعنترة ٢٢٢ والنابغة الذبياني ٨٤.

obeikandl.com

للذَّكر ثُعْلُبان، وللأنثى ثَعْلبة، وجمع على ثَعَالب، وثُعالة[1]، ويكنى أبا الحُصَين[2].

وحين وقف مشهد الضّباع والثعالب عند شيء من ذلك كله فإنه أبى إلا أن يبرز مرافقة هذه الحيوانات للجيوش طمعاً في ضخامة الغنيمة وكأنها أحست بها عن طريق التجربة، ولعل من أبرز من عرض لهذا أحد شعراء المنصفات وهو المفضل النُّكْري في قوله[3]:

بكُـــلِّ مَجالـــةٍ غـــادرْتُ خِرْقـــاً ... مِـــنَ الفِتْيَـــانِ مَبْـــسِمُهُ رَقيـــقُ[4]

فأَشْـــبَعْنا الـــسِّبَاعَ وأَشْـــبَعُوها ... فراحَـــتْ كُلُّهَـــا تَئِـــقٌ يَفُـــوقُ[5]

تَرَكْنَـــا العُـــرْجَ عاكِفَـــةً عَلَـــيْهِمْ ... وللغِرْبَـــانِ مِـــنْ شِـــبَعٍ نَغِيْـــقُ[6]

فعظمة الغُنْم لم تترك أحداً من سباع الوحش والطير إلا ناله نصيب منه. ولعل هذا التصوير يظهر المأساة التي أصيب بها الحيان المتصارعان، مما يبعث الأسى في النفوس من هذه الحروب التي لا ينتهي ألمها. وإذا كانت هذه الصورة قد فتتت عضد المفضل لأنه أيقن بضرر الحروب على جناتها وغيرهم فإن المشاهد الشعرية جعلتها صورة من صور الفخر على الأعداء، فالجثث تملأ الساحات بمثل ما تمتلئ بطون عوافي الضباع والثعالب منها[7]، وكأنها القرابين[8]، ومن أمثلة ذلك قول عنترة بن شداد[9]:

---

١ - انظر اللسان (ثعلب) والحيوان ١٨٢/٢ و١٨٣ و٤٠٦/٣ وحياة الحيوان الكبرى ١٧٤/١.

٢ - يطلق على الثعلب عدد آخر من الكنى وهو شر السباع، انظر حياة الحيوان الكبرى ١٧٤/١ واللسان (أبو).

٣ - الأصمعيات ٢٠٢ ق٦٩ والمنصفات ٢٢- ٢٣.

٤ - الخِرْق: الرجل المعروف بالكرم. ومبسمه رقيق: أي ذو نجدة وسماحة.

٥ - تَئِقٌ: ممتلئ. وفاق، ويفوق: أخذه البَهَر، وهو ما يأخذ الإنسان عند النَّزْع والفزع.

٦ - العُرْج: صفة للضباع وصارت اسماً لها. ونغيق: صوت الغراب.

٧ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٠٨ وبشر بن أبي خازم ١١ وعروة بن الورد (صادر) ٤٧ ودريد بن الصمة ٢٩ وعمرو بن كلثوم ٥٩٧ وشعر النابغة الجعدي ٢٠٣ وديوان قيس بن الخطيم ١٤٤ والمفضليات ٢٥٤ ق٦٠ والحماسة البصرية ٦٥/١ وشعراء بني قشير ٢٢١/٢.

٨ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٢١٩ وانظر فيه ٢٢١.

٩ - ديوان عنترة بن شداد ٣٠٢- ٣٠٣ وانظر فيه أيضاً: ٢١٠ و٢٨٨.

obeikandi.com

وعَمْــراً وحَيَّانــاً تَركْنَــا بقَفْــرَةٍ تعودُهُمَا فِيْهـا الـضِّبَاعُ الكَـوَالحُ[1]

يُجَــرِّرْنَ هَامَــاً فَلَّقَتْــهُ سُــيُوفُنَا تَزَيَّــلَ مِـنْهُنَّ اللِّحَـى والمَـسَائِحُ[2]

وعلى ما تحمله هذه المشاهد من فخر لدى الشعراء على قدر ما تبعثه في النفس من نفور لأنها صورة دموية مرعبة. وتستمد النفس منها جملة من الدلائل، فهم لجؤوا إلى تصوير الأشلاء التي تجرها الأم إلى جرائها[3]. وليس هذا فحسب بل إن دريد بن الصمة أشار إلى ما هو معروف عند الضُبع من أنها إذا لقيتِ قتيلاً بالعراء ورم وانتفخ غُرموله تأتيه فتركبه، وتقضي حاجتها منه ثم تأكله[4]، وذلك في قوله[5]:

تَجُــرُّ الــضِّباعُ بأَوْصَــالِهِمْ ويَلْقَحْــنَ فِـيْهِمْ ولَـمْ يُقْبَـرُوا

وقد يكون بعض الشعراء افتخر بأن يكون طعاماً لأم عامر[6]، كالنابغة الجَعْدي في قوله[7]:

فقُلْـتُ لهـا: عِيْثـي جَعَـارِ وجَـرِّرِي بلَحْمِ امْرِئٍ لَمْ يَشْهَدِ اليَوْمَ نَاصِرُهْ[8]

وهذا خلاف للمألوف، وإمعان في إبراز فساد الناس لاشتهار الضبع بذلك، ولكن تأبط شراً يخالفه في عرض هذا المفهوم الفكري، لأنه يُحذِّر الضّباع وينذرها بمثل ما يحذر الطير من أكل لحمه، ويهددها بأنها إن تجرأت على ذلك

---

١ - عَمْرُو وحَيَّان من ضبّة. والكوالح: التي كشرت عن أنيابها.

٢ - المسائح: الذوائب، وهي شعر مقدم الرأس، ويقال للذؤابة ناصيةٌ.

٣ - انظر مثلاً: المفضليات ٣٠٤ ق٨٣ وديوان الهذليين ٢١٥/١ و٨٠/٢ و٩٧- ٩٨ و١٠٥- ١٠٦ وانظر كتاب (الحيوان في الشعر الجاهلي) ١٢٣- ١٢٤.

٤ - انظر الحيوان ١١٧/٥ و٤٥٠/٦ ونهاية الأرب ٢٧٤/١٩.

٥ - ديوان دريد بن الصمة ٧٩.

٦ - انظر ديوان الشنفرى ٣٦.

٧ - شعر النابغة الجعدي ٢٢٠.

٨ - عيثي: أفسدي وغيِّري. وجَعَارِ: اسم للضبع معدول عن جَاعِرة، وسميت به لأنها تجعر، أي تأكل كثيراً، وقيل: لأنها كثيرة الشعر، انظر اللسان (جعر).

obeikandl.com

فإنما سيكون لها سماً زعافاً فيقول[1]:

ولَقَـــدْ عَلِمْـــتُ لَتَعْـــدُوَنَّ عَلَـــيَّ شِـــيمٌ كالحَـــسَائِلْ[2]

يـــأْكُلْنَ أَوْصَـــالاً ولَحْمـــاً كالـــشُّكَاعَى غَيْـــرَ جَـــادِلْ[3]

يـــا طَيْـــرُ كُلْـــنَ فـــإِنَّني سَـــمٌّ لَكُـــنَّ وذُو دَغَـــاوِلْ[4]

وأخذت هذه المشاهد مسارب فكرية مختلفة من شاعر إلى آخر، فعدي بن زيد حالف قوماً ابتنَوا على سوء الطوية كالضّباع العُرْج التي توالت هي والثعالب على جثته، وسعى الجميع إلى أكل لحمه، ونسُوا أن لحمه مُرٌّ زُعاف، فطفق يسخر منهم ويحقرهم قائلاً[5]:

ذَريـــني إنَّ أمـــرَكِ لـــنْ يُطاعَـــا ومـــا أَلْفَيـــتِني حِلْمِـــي مُـــضاعَا

ألا تِلْـــكَ الثَّعَالـــبُ قَـــدْ تَوالَـــتْ عَلَـــيَّ وحَالفَـــتْ عُرْجـــاً ضِـــباعَا[6]

لِتَمْـــضُغَني العُـــدَاةُ فمَـــرَّ لَحْمِـــي وأفْـــرَقَ مِـــنْ حِـــذَارِي أو أَتَاعَـــا[7]

وقد تكون صورة الضباع أشد وطأة على المرء من صورة الثعالب ولا سيما حين يتعلق الأمر بنبش القبور، وإن شاركتها الثعالب في ذلك، ولذلك قيل: أنبش من جَيْأل[8].

---

١ - ديوان تأبط شراً ١٩٥- ١٩٦.

٢ - شِيْمٌ: سُوْد، يعني الضّباع، واحدها أَشْيم. والحَسائِل: جماعة البقر، واحدها حَسِيل.

٣ - الشُّكَاعَى: نَبْت، وهو ذو شجيرات صغيرة ذات شوك حاد رفيع. وغير جادل: ليس بغليظ، يقال: جَدَل يَجْدُل: إذا غلظ واشتد.

٤ - الدغاول: الدواهي.

٥ - ديوان عدي بن زيد ٣٥.

٦ - الثعالب والضباع: كناية عن أعدائه.

٧ - أَفْرَق: سَلح. وأَتَاع: قَاءَ.

٨ - انظر الحيوان ٦/٤٥٠ ومجمع الأمثال ٢/٣٥٥ وجمهرة الأمثال ٢/٣١٨.

obeikandl.com

فالضبع لا تأكل إلا اللحم[1] ولعل هذا سبب ولوعها بالجيف[2] حتى سالمت النسور عليها[3].

ونرى أن فكرة نبش القبور عند الضباع والثعالب تتعدى صورة التفكير الساذج، فربما تكون ذات دلائل مختلفة على معتقدات الجاهليين. ولهذا عكف بعضهم على طلب اللذات اعتقاداً منه بعدم الخلود، وبأنه سيكون طعاماً سائغاً للضباع والسباع، كما يوضحه قول مُشَعَّث العامري[4]:

بإِصْـرٍ يَتَّـرِكْني الحَـيُّ يَوْمـاً ... رَهِيْنَـةَ دارِهِـمْ وهُـمُ سِـراعُ[5]

تَمتَّـعْ يـا مُـشَعَّثُ إنَّ شَـيئاً ... سَـبَقْتَ بـهِ الوَفـاةَ هُـوَ المَتـاعُ

وجـاءَتْ جَيْـألٌ وأَبُـو بَنِيْهـا ... أَحَـمُّ المَـأْقِيَيْنِ بـهِ خُمـاعُ[6]

فظَـلاَّ يَنْبِـشَانِ التُّـرْبَ عنِّـي ... ومـا أَنَـا وَيْـبَ غَيْـرِكَ والسِّبَاعُ[7]

ويبدو أن هذه الصورة لا تفارق مخيلة بعض الجاهليين ممن خشي على نفسه حتى بعد دفنه، فطفق يصور الضبع بشكل منفر وهي تجر لحمه لتطعمه جراءها، وقد أضحى أشلاء في قبره[8]. ومن هنا شرع يأمر ولده بأن يختار له مقره الأخير، وأن يدفنه بالفلاة، كما يقول جُرَيْبة بن الأَشْيَم[9]:

---

١ - انظر الحيوان ١٤٦/٧.

٢ - انظر الحيوان ٣٢١/٥.

٣ - انظر الحيوان ٣٣٣/٦.

٤ - الأصمعيات ١٤٨ ق٤٨.

٥ - الإصْر: العهد الثقيل، وبإصْر: صيغة قسم.

٦ - جَيْأل: علم جنس لأنثى الضبع، وهو غير مصروف، وصُرف ضرورة. والمأقى: لغة في المُوق، وهو طَرْف العَيْن مما يلي الأنف. وأَحَمُّ: أسود. والخُماع: العُرْج.

٧ - وَيْب غيرك: هلاكاً لغيرك، وهو مفعول مطلق ناب عن فعله، لأنه دعاء.

٨ - انظر مثلاً: المفضليات ٥٢- ٥٣ ق٩ و٢٢٢ ق٤٥.

٩ - الحيوان ٤٥٣/٦- ٤٥٤.

obeikandl.com

فـــلا تَـــدْفِنَنِّي فِي ضَـــرَاً وادفِنَنِّـــي بدَيْمُومَـــةٍ تَنْزُوعَلَـــيَّ الجَنَـــادِبُ[1]

فـلا يـأكلَنِّي الـذِّئبُ فيمـا دفَنْتَنِـي ولا فُرْعُـلٌ مِثْـلُ الـصَّريمةِ حَـارِبُ[2]

أَزَلُّ هَلِيْـــبٌ لا يَـــزَال مآبطـــاً إِذا ذَرَبَـــتْ أَنْيابُـــهُ والمَخالِـــبُ[3]

فالمشهد يلجأ بكل صراحة إلى اختيار الفلاة والابتعاد عن الأرض التي يكثر فيها الشجر لأنها موئل للوحش، ويعرض لصفة الفُرْعُل وهو ولد الضبع[4]، بأسلوب مقزز وهو يسلب كل جزء فيه...إنها صورة دموية وعنيفة ترمز إلى شدة الاقتتال الذي يحدث بين القبائل العربية؛ إذ لم يكن أحد من أبنائها يرحم الآخر في بعض المواقف...

وكذلك يرمز هذا المشهد إلى القلق الوجودي الذي يثيره الشاعر[5]، وهو قلق من المصير المجهول أيضاً... فالفُرْعُل أسود كالليل، صغير الحجم وافر الشعر يجهد بأنيابه ومخالبه للوصول إلى جثته كما يقول جُرَيبة. ولهذا قيل: خذلوه حتى أكله ألأم السباع[6]. ولا يختلف سلوك (العِسْبار) ـ وهو ولد الضبع من الذئب ـ عن سلوك الفُرعل[7].

ويقود هذا المشهد إلى أن الضباع ربما رأت نائماً فحفرت تحته، فهي من أشد الحيوانات فساداً في البشر والغنم، وأكثرها فسقاً[8]، وهي من الحيوانات التي تحيض ومن هنا قيل: إن الجن لا تركبها[9].

---

١ - الضَّراء: المكان كثير الشجر. والدَّيمومة: الفَلاَة. وتَنْزُو: تقفز.

٢ - الصريمة: الليل. والحارب: السالب.

٣ - الأزل: صغير العجز. والهليب: كثيف الشعر. وذربت أنيابه: أي تمكنه في الحفر.

٤ - انظر اللسان (فرعل) وحياة الحيوان الكبرى ٢/٢٢٣.

٥ - انظر المسبار في النقد الأدبي ١١٢.

٦ - انظر الحيوان ٦/٤٥٤.

٧ - انظر الحيوان ١ / ١٨١ و ٦ / ١٥٠ وحياة الحيوان الكبرى ٢ / ٨٢ .

٨ - انظر الحيوان ٣/٥٢٩ و٦/٤٦ وحياة الحيوان الكبرى ٢/٨١- ٨٢.

٩ - انظر الحاشية السابقة.

openkandi.com

ومهما يكن شأن مشهد الضباع فإنه أبرز الصفات المعنوية للضباع وقل أن احتمى بالصفات الحسية إلا ما كان من الصعاليك[1]، على الرغم من أن أصواتها لا شبيه لها إلا أصوات النوق عند الحلب[2]، وأعناقها تشبهها قوائم الخيل في الغلظة والشدة[3].

و كذلك بقي مشهد الثعالب – غالباً – في إطار الصفات المعنوية، فهو رمز للخداع والخَتْل والمكر والدهاء[4]، وكذلك هو مثل للمهجو في صور الهوان والخسة لأنه شر السباع[5] وأخبثها كما يقول دريد بن الصمة[6]:

ولـسْتُ بثَعْلـبٍ إنْ كـانَ كَـوْنٌ يَـدُسُّ برَأْسِـهِ في كُـلِّ جُحْـرِ

ولا شيء أدل على هوان الأصنام من أن الثعلب يبول عليها كقول العباس بن مرداس[7]:

أَرَبٌّ يَبُـولُ الثُّعْلُبـانُ برَأسِـهِ لقَدْ هَانَ مَنْ بالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ

وجعله دريد بن الصمة مثلاً لأعدائه الذين مُرِّغت أنوفهم بالتراب على حين ضرب العقاب مثلاً لخيله ونفسه فقال[8]:

رأَتْ ثَعْلبـاً مِـنْ حَـرَّةً فهَـوَتْ لَـهُ إلى حَرَّةٍ والمَوْتُ عَجْلانَ كاربُـهْ[9]

فخَـرَّ قَتِـيلاً واسْـتَمَرَّ بِـسَحْرِهِ وبالقَلـبِ يَـدْمَى أَنْفُـهُ وتَرائِبُـهْ[10]

---

١ - راجع ما تقدم حاشية (٧) من الصفحة ٣٢٥.

٢ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢١٥- ٢١٦.

٣ - انظر مثلاً: ديوان علقمة الفحل ٩١.

٤ - انظر مثلاً: ديوان طرفة ١١٨ ودريد بن الصمة ٢٨ وعروة ٥٧ و(صادر) ٢٦ والحيوان ٣٠٢/٦.

٥ - انظر مثلاً: ديوان دريد بن الصمة ٣٠ والمفضليات ٣١٧ ق٩٠ وحياة الحيوان الكبرى ٢٧٤/١.

٦ - ديوان دريد بن الصمة ٦٧.

٧ - ديوان العباس بن مرداس ١٥١ وانظر الحيوان ٣٠٤/٦ وحياة الحيوان ١٧٤/١ ونهاية الأرب ٢٤/١٨ ومجمع الأمثال ٢٨٤/١ و١٨١/٢ وفصل المقال ١٥٨ واللسان (ثعلب).

٨ - ديوان دريد بن الصمة ٣٨ وراجع ما تقدم ٢٠٣- ٢٠٤.

٩ - الحَرَّة: الأرض ذات الحجارة السود النَّخِرَة كأنها أخرقت بالنار.

١٠ - السَّحْر: الرئة. والترائب: عظام الصدر.

obeikandl.com

وبهذا أصبح الثعلب في مشاهد الصيد عند بعض الشعراء ـ وهذه مسخرة لإظهار فروسيتهم – جزءاً من صفات خيولهم. فسرعة الثعلب وعسلانه من الصفات التي أسقطت على الخيل[1]، كما شبهت حركة اضطراب الرمح وهو يهتز باليد بعسلانه[2].

وذلك كله يقود إلى أن مشاهد الثعلب طالت إذا كانت موظفة في مشاهد الصيد، على حين ضُربت مثلاً لصفة في أبيات منفردة، وهو التقليد الفني الأشهر لها. فهوَانُ الثعلب ـ لعلة الخوف فيه ـ جعله يلجأ إلى الأماكن المهجورة والخرائب[3]، وجبنه جعله يروغ من أجل اصطياد فريسته ولهذا قيل أروغ من ثعلب[4]، وحنكته أو ذكاؤه إنما يكون لحالة الضعف إذا واجه موقفاً أعظم من كل صفاته ولهذا تراه يتماوت[5] على شدة حذره ممن هو أقوى منه.

هكذا تبين لنا أن المشاهد المطولة في الضّباع أوفر حظاً من مشاهد الثعالب وإن كانت هذه وتلك تتضمن صفات الشر، فتلوح أمامك في كل مشهد تعرض له القصيدة حتى صارت صورتهما رمزاً للدناءة[6] والذلة والشره واللؤم، ولهذا غلب وجودهما في صور الهجاء والحرب.

ولكن هذه الصفات في وضوح الشر والجبن ليست وحيدة الجانب فهناك مشاهدحيوانات أخرى من ذوات الناب والأظفار تتصف بجملة من الصفات المتعددة لا تكمن إلا فيها كالأنانية والشراسة وضعف الحيلة.

وفي هذا المقام لا بدّ من كلمة أخيرة تحكي حقيقة الإبداع الأدبي في تلك المشاهد وما يأتي بعدها. فمن يتأملها يدرك اتساع الرؤية الثقافية والاجتماعية التي

---

١ – انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢١ و٣٨.

٢ – انظر مثلاً: ديوان الهذليين ١/١٩٠.

٣ – انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٢٨٧ و٣٢٥ وشعر زهير بن أبي سلمى ٢١٣.

٤ – انظر ثمار القلوب ٤٠٤ ومجمع الأمثال ١/٣١٧ وانظر مثلاً: ديوان طرفة ١١٨.

٥ – انظر الحيوان ١/٢١٣ و٢/٢٠٩ و٢٩٠ و٢٩٥ و٣٥٤ و٦/٣٠٥ ومحاضرات الأدباء ٤/٦٨٠ وثمار القلوب ٤٠٤.

٦ – انظر الحيوان ١/٣٥٤ و٦/٢٠٣.

openkandil.com

أرخت ببهجتها على الحياة على الرغم من عظمة المأساة التي كان يعيشها الجاهلي وينبري لتصويرها في نبش الضباع والثعالب للقبور؛ ومطاردة جثث القتلى...إذ شرع يرسم لوحة المأساة الإنسانية ممزوجة بعواطفه الجياشة، إنه يعرض علينا قصة الجاهلي في صراعه الأعظم مع الزمن، ومع من هو أقوى منه في واقع مرّ قاهر، سواء تمثل بالبيئة الصعبة المعقدة الشحيحة الموارد، ما جعلها تفرض على القوم شدة التقاتل من أجل الوجود، أم تمثل بالقلق الوجودي من المستقبل المجهول...لهذا كانت مشاهد الضباع والثعالب تثير نزعة الخوف اللاهب في النفس...وهذا وحده وراء إبرازه للصورة الحسية المرعبة لصفات الضباع، ثم الصورة المرعبة لتمزيق جثة القتيل أو استخراج جثث الموتى ونثرها فوق قارعة الصحراء...ومادامت هذه هي النتيجة فليقصّر الزمن والمسافة بين نهايته وقبره، وليكن هذا القبر بطن السباع، وهذا ما عبّر عنه غير مشهد ولاسيما عند الصعاليك.

٥- مشهد حيوانات أخرى

حظيت أنواع من الحيوان بعناية الجاهليين، فتراحبت مشاهدها في أشعارهم إذ حملت صفاتها الحسية عدداً من الدلائل المجازية، بينما وقفوا من بعضها الأخر- ولا سيما ذوات الناب والأظفار - موقفاً مغايراً، فقَلَّ أن عرضوا لها في صلب تلك المشاهد وإنما أوردوها - فقط - مادة للتمثيل والإيضاح. أي إنَّ ندرة الصفات التي تحملها لم تحجب عنهم الاستفادة منها واستعارتها لإحدى الصفات المعنوية أو الحسية، أو إسقاطها على شخص ما. ومن يتأمل أشعارهم يجد فيها غير ما نوع من أنواع الحيوان اتخذه الشعراء وسيلة إلى التعبير عن رؤيتهم، ما جعل المشهد أوقع تأثيراً وأكثر غنى.

وهذا كله يقود إلى مشاهد حيوانات أخرى من ذوات الناب والأظفار وبيان مالها وما عليها بعد التعريف بها كالأرانب والخنازير والظَّرَابي والقِرَدة والهرَرة والنُّمور واليرابيع.

obeikandl.com

فالأرنب يقع على الذكر والأنثى وجمعه أَرَانب[1]. وهو من ذوات الوبر مفتوح العين ولا يلحقه من الكلاب إلا صغير اليد[2]. وخص الخُزَز بالذَّكَر وجمعه خِزَّان وأَخِزَّة، وخصَّ العِكْرِشَة بالأنثى، والخِرْنق بولدهما[3]. وتناولت مشاهد الأرانب جملة من الصفات في مشاهد الصيد وغيرها كالجبن[4] والسرعة، واللين والملاسة وبهما شبهت الدروع[5] والنساء، بل أخذت الناس أسماء لها من الأرانب كالخرنق[6]. وربما توجّهت بعض المشاهد إلى صفة الحَيْض وكعب الأرنب حين جاءت في معرض الحديث عن معتقدات العرب وأعرافهم[7].

أما الخِنْزير وجمعه الخَنَازير، والأنثى خِنْزيرة وولدهما خِنَّوْص[8]، فهو سبع مركب من ذوات الناب والأظلاف. فهو يأكل الجيف والحيَّات والعلف والعشب، ويطلب العروق المدفونة في الأرض حتى ليخرب المزروعات، ويقبل على العَذِرَة بِنَهَم[9].

ومن هنا فالخنزير حيوان قذر امتنع أكثر الجاهليين عن أكل لحمه ووافقهم الإسلام[10] على ذلك، وكرهوا مجاورته ورغبوا في مجاورة الأسد لأنه يطلبه وربما استعانوا بالأسد عليه[11]. فالعرب أدركوا طباع الخنزير وعرفوا هيئته ولم يرفع

---

١ - انظر اللسان والتاج (خزز وعكرش وخرنق وأرن) وحياة الحيوان الكبرى ١/٢٩١- ٢٩٢.

٢ - انظر الحيوان ٣/٣٩٩ و٤٠٦ و٥/٤٨٣ و٦/٣٥٦.

٣ - انظر اللسان والتاج (خزز وعكرش وخرنق وأرن) وحياة الحيوان الكبرى ١/٢٩١- ٢٩٢.

٤ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٧٣ وطرفة ١١٧ والشماخ ٢٣١ وديوان الهذليين ٢/١٢٢ والمفضليات ٤٠.

٥ - انظر مثلاً: ديوان سلامة بن جندل ١٧٢ وحياة الحيوان الكبرى ١/٢٩١ وسمط اللآلي ١/٢٢٦.

٦ - انظر تأويل مشكل القرآن ٥٣ وحياة الحيوان ١/٢٩١ واللسان (خرنق، مشق، رضي).

٧ - انظر الحيوان ١/٣٠٩ و٣/٥٢٩ و٦/٤٦ و٣٥٦- ٣٥٨ والحيوان في الشعر الجاهلي ٢٣٥- ٢٣٦.

٨ - انظر اللسان (خنزر، خنص).

٩ - انظر الحيوان ١/٢٨ و٢٣٤ و٢/٥٢ و٣/٤٩٦ و٥٢٥ و٤/٤٠ و٥٠ و٥٥ و٩٩ و١٦٥- ١٦٦ و٦/٥٥ و٣٧٤ وحياة الحيوان الكبرى ١/٣٠٣ وراجع ما تقدم ٧٥ حاشية (١) و١٧٨.

١٠ - انظر سورة البقرة ٢/١٧٣ والمائدة ٥/٣ والأنعام ٦/١٤٥ والنحل ١٦/١١٥ وانظر الحيوان ٤/٤١.

١١ - انظر الحيوان ١/٣٥٤ و٢/١٢٤ و٤/٣١ و٨٤٩.

openkandil.com

مكانته عندهم أنهم أطلقوا اسمه[1] على بعض الأماكن، فصورته لا تنفصل عن القذارة والشر والإيذاء. وما وقع في أشعارهم إلا بياناً لهذا[2] على ندرة ذكره وكأن كرههم له في الحياة متصل بكرههم له في الشعر .

ولعل الظَّرَابي وحدها تقارب الخنازير في القذارة. والظَّرابي جمع مفرده الظَّربان، وله جمع نادر ظِرْبَى. وهو دابة على قدر الهرَّة ودون الكلب وله يدان قصيرتان فيهما براثن حِدَادٌ، طويل الذنَب ليس لظهره فقَار، ولون ظهره أسود. والظربان كثير الفَسْو مُنْتن الرائحة[3]، ويبدو أنه أدرك هذا السلاح فهو يقصد هَجْمَةً من الإبل فيفسو بينها فتتفرق حتى قيل له: مُفَرِّق النَّعَم[4]، وقيل: إن الثوب يبلى ولا يذهب نتن الظربان[5]، وبهذا كله ضُرِب المثل به[6]. فأسد بن ناعصة لم يجد غيره ملاذاً ليتمثل به حين قتل عبيد بن الأبرص بأمر من النعمان يوم بؤسه، إذ قال[7]:

أَلاَ أَبْلِغَا فِتْيَانَ دُودَانَ أَنَّنِي ضَرَبْتُ عُبَيداً مَضْرِبَ الظَّربانِ

والظربان يجاور الضب ويطلبه طعاماً له كما يطلب الطير أيضاً[8].

أما القِرْدُ وأُنثاه قِرْدَة وكنيته أبو قِشَّة وغيرها فإنه يجمع على قِرَدَة وقُرود وأَقْرَاد[9]. وهو أحدب هزيل كدمية أو كطفل في حضن أمه[10]، وذو أعاجيب وملاحة

---

١ - انظر خزانة الأدب ٣/٥٣٤.

٢ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٤٢ والأعشى ٩٣ وانظر سورة المائدة ٥/٦٠.

٣ - انظر الحيوان ١/٢٤٧- ٢٤٨ و٢/١٥٥ و٣/٣٧٣ و٥٠٠ و٥/٤٤٧ و٦/٣٧١ و٣٧٧ و٤٦٨ وحياة الحيوان ٢/١٠٨ واللسان والتاج (ظرب) و(فسا).

٤ - انظر الحيوان ١/٢٤٨ و٧/٢٤ وحياة الحيوان الكبرى ٢/١٠٨.

٥ - انظر حياة الحيوان الكبرى ٢/١٠٨.

٦ - انظر مجمع الأمثال ٢/٨٥ واللسان (فسا).

٧ - اللسان (ظرب) وحياة الحيوان الكبرى ٢/٢٤٣.

٨ - انظر الحيوان ١/٢٤٨- ٢٤٩ و٦/٤٢ و٤٨ و٦٨ و٣٧١ و٧/٣٣ وحياة الحيوان الكبرى ٢/١٠٨.

٩ - اللسان والتاج (قرد) وحياة الحيوان الكبرى ٢/٢٤٣.

١٠ - انظر مثلاً: ديوان دريد بن الصِّمَّة ٥٤ والمفضليات ١٣٨ ق٣٦ واللسان (قش).

obeikandl.com

ومعرفة وفطنة، وهو من الحيوانات المقلدة[1]. ولكن هذا لم يرفع شأنه عند العرب، لأنه ظل لديهم ذليلاً خاسئاً. ولعل خسته جعلته يأكل القمل[2]، ومن غضب الله عليه جعله مثله[3].

وإذا كان الشعر الجاهلي قد تناول ذلك كله في صميم المفارقة المجازية، ومقاربة الصفة بين الحيوان والإنسان فإن ما قيل عن القِرَدة من أخبار أكثر مما عرض له الشعر[4]. فالقردة تبيت الليل وهي تحمل بأيديها حجارة لئلا تنام، فتأتي الذئاب مغافلة إياها فتأكلها. ولهذا تجتمع ليلاً وتبيت معاً، وربما تبادلت أمكنة بعضها بعضاً في نظام حذر حتى صارت مضرب المثل بالجبن[5] والنذالة. وطفيل الغنوي يأبى أن يصبح خسيساً يصيب قومه بالمخزاة كالقرد فيقول[6]:

ولا أَجَلِّلُ قَوْمِي خِزْيَةً أَبَداً فِيْهَا القُرُودُ رِدَافاً والتَّنَابِيلُ

ولذلك ضُرب المثل بجبن القرد فقيل: أجبن من هِجْرِس[7]. وقيل: الهِجْرِس من السَّنانير ويكثر صياحه بالعشيات والليل. ويبدو أن الهجرس دابة فوق اليربوع[8] ودون الثعالب يشبه القرد ويُماثل الهر، وهو غير هذا حتماً، ويسمى الهر السِّنَّوْر والضَّيْوَن.

فالهرُّ وجمعه الهِرَرة وأنثاه هِرَّة حيوان وحشي معروف ينتاب الدور ولا يقيم في مكان واحد[9]، يتصف بالعدوانية والأنانية والخصومة والعقوق. ولهذا جعله الشعراء مثلاً لذلك، فعقدوه بجنب رواحلهم ليتلقاها بالأذى فتزداد سرعتها[10]، فعلامات

---

١ - انظر الحيوان ١/٢١٠ و٢/١٧٩- ١٨٠ و٤/٥٠ و٨٠ و٩٨- ٩٩ و٧/٣٩ و٢١٨ وحياة الحيوان ٢/٢٤٣.

٢ - انظر الحيوان ٤/٣٧ و٥٠ و١٠٥ و٥/٣٨٣ و٧/٣٩.

٣ - انظر مثلاً: سورة البقرة ٢/٦٥ والمائدة ٥/٦٠ والأعراف ٧/١٦٦.

٤ - انظر مثلاً: ديوان دريد بن الصمة ٥٤ وشرح ديوان حسان ٢٨٠ والأنوار ومحاسن الأشعار ١/١٠٤.

٥ - انظر مجمع الأمثال ١/١٨٥ وجمهرة الأمثال ١/٣٢٦.

٦ - ديوان طفيل الغنوي ٨٠ .

٧ - انظر مجمع الأمثال ١/١٨٥ وجمهرة الأمثال ١/٣٢٦.

٨ - انظر مثلاً: شعر عمرو بن شأس ٢٩.

٩ - انظر اللسان والتاج (هرر) و(سنر) و(ضون) و(دمي).

١٠ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٧٠ وعنترة ٢٠٢.

openkanar.com

فعلامات الشر مقترنة به كقول الممزق العبدي[1]:

تَـرَى أو تَـرَاءَى عِنْـدَ مَعْقِـدِ غَرْزِهَـا تَهاويـلَ مِـن أَجْـلادِ هِـرٍّ مُعَلَّـقِ[2]

وفوق ذلك فالهر بخيل جبان لا ينهض في البرد الشديد[3]. ولذلك كله قد تتشابه بعض صفات الهررة والمرأة، ولعل ما جعلها تأخذ اسمها مثل (هر، وهريرة)[4] الاشتراك في صفة النعومة والألفة وغيرهما.

وحين يتحدث المرء عن الهر تقوده صورته إلى الحديث عن النَّمِرْ، وكلاهما متشابه بالطبع وإن اختلفت الجثة. فالنَّمِرْ أخبث من الأسد ويقاربه في الجثة، وجمعه نُمُور ونُمْرٌ ونِمَار، والأنثى نَمِرةْ. وسُمّي بهذا الاسم لاختلاف لونه، كقول عمرو بن معد يكرب[6]:

قـــومٌ إذا لبِـــسُوا الحَديـــ ـــدَ تنَمَّـــرُوا حَلَقـــاً وقِـــدَّا[7]

ولعل المشهد السابق يكشف عما للنمر من قوة الشكيمة وشدة الحذر وسرعة الخطف. ويتفوق بهذه الصفات على الأسود والذئاب فالنمر أبداً متنكر، ولهذا تردد ذكره في معرض تشبيه الفرسان مدحاً وهجاءً. فالفارس يلبس جلده تصريحاً بالشر وإبرازاً لصَفْحة العداوة[8]، وبذا يثبت صفة الجرأة والشجاعة مثلما يلبس جلد

---

١ - الأصمعيات ١٦٥.

٢ - تراءى: تكلَّف النظر إليه. والغَرْز للناقة مثل الحِزام للفرس. والتَّهَاويل: جمع تهويل، وهو ما هُوِّل به. وأجلاد الشيء: شخصه بكماله.

٣ - انظر مثلاً ديوان امرئ القيس ٢١٥.

٤ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٥٥ وطرفة بن العبد ٥٠ والأعشى ٩٣ و١١٣ و١٢١ و٣٤٥ والحيوان ٥/٢٧٤ و٣٤٣.

٥ - انظر اللسان والتاج (نمر) ويقال له أيضاً: الهِرْماس، وهو من الهَرْس، انظر اللسان (هرس).

٦ - شعر عمرو بن معد يكرب ٨٦٤.

٧ - الحَلَق - وهو بدل من الحديد -: الدروع التي نُسجت حلقتين حلقتين. والقِدُّ: - هنا - جلود يخرز بعضها إلى بعض تُلْبس على رؤوس خاصة، وقيل: هي جلود تلبس مثل الدروع.

٨ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٥١ ودريد بن الصمة ٦٩ وقيس بن الخطيم ١٨٣. وثمار القلوب ٣٩٩ وشعر الحرب في العصر الجاهلي ٩٩ و٤٧٢.

obeikandl.com

الأسد[1]، كقول خِدَاش بن زهير[2]:

فعَارَكْنَــا الكُمَــاةَ وعَارَكُونَــا عِــرَاكَ النُّمْــرِ واجَهَــتِ الأُسُــودَا

وقد يكون جلد النمر لمظنة المخاتلة وهو عيب في الفرسان[3]، مثلما يكون لتقطيع أواصر الرحم بين الأقرباء. فحينما يلبسون جلد النمر فإنما يعني أن نفوسهم امتلأت حقداً وغيْظاً كقول أبي جندب الهذلي[4]:

وتقْطَــعُ بَيْنَنَــا رَحِــمٌ إِذَا مَــا لَبِــسْنَا لِلْكُمَــاةِ جُلُــودَ نُمْــرِ

فالنمر من السَّبُع التي كثر ختلها حتى سُمي بالسَّبَنْتى[5]، وهو يسعى وراء الغنم إن لم يجد طلبته. والنمر قد ينزل بقوم ليسوا ذوي خيل وأموال نفيسة، فلا يجدون ما يتحصنون به إلا الجبال[6].

وبهذا يبقى النمر من حيوان الوحش النافر الشرس المتفرد، وقد افتخر بعض الصعاليك بصحبته[7]، و استمروا على هذا الزعم حتى العهد الأموي إذ يدعي القتَّال الكلابي في شعره أنه صاحبه وعاشا معاً[8].

وأخيراً ننتهي إلى مشهد اليَرابيع آخر مشاهد هذا القسم، وهو يشتمل على الجِرْذان والفِئْران وما ماثلها. وما توقفت القصيدة الجاهلية عند هذه الحيوانات إلا في معرض صفة نادرة لا توجد في غيرها أو دلالة على حكمة. فإذا جاء أجل المرء

---

١ - انظر مثلاً: شعر خداش بن زهير ٨٠ والمفضليات ٣٢٨ ق٩٥ والحماسة البصرية ١٤١/١ وسمط اللآلي ٣٤٣/١ و٧٩٩/٢.

٢ - شعر خداش بن زهير ٤٤ وانظر الحماسة الشجرية ١١٦/١ والمنصفات ١٣٨.

٣ - انظر ديوان دريد بن الصمة ٦٩.

٤ - شرح أشعار الهذليين ٣٦٩/١ وانظر سمط اللآلي ٧٩٩/٢.

٥ - انظر ديوان الخنساء ٤٨ والحيوان ٤٠٤/٦.

٦ - انظر ديوان امرئ القيس ١١٢.

٧ - انظر مثلاً: النوادر ٢٠٣ وما بعدها (العكبري) وأعجب العجب (الزمخشري) ١٨ و٢٢ و٣١ و٧٤ وشرح لامية العرب ١٦ و٣٧ ومختارات شعراء العرب ٧٢- ٧٥.

٨ - انظر ديوان القتال الكلابي ٢٠- ٢١ و٧٧.

obeikandl.com

واليربوع فلا شيء يكون مع القضاء، كقول سفيان بن ربيعة الباهلي[1]:

مـــا المَـــرْءُ في شَـــيْءٍ ولا اليَـــرْ بُـــوعُ في شَـــيْءٍ مـــعَ القَـــضَا

ويستفيد أوس بن حجر من هذه الحيوانات وبناء بيوتها، فيضربها مثلاً لطفيل بن مالك الذي تمنى أن يدخل نفقه المتعرج جُبْناً وهَرَباً فقال فيه[2]:

فَـوَدَّ أبـو لَيْلـى طُفَيـلُ بـنُ مالِـكٍ بمُنْعَـرَجِ الـسُّؤْبَانِ لـوْ يَتَقَـصَّعُ[3]

وجعل غير ما شاعر تلك الصورة لأعدائه، وهم يهربون من خيل قومه[4]. ومن هنا نجد أن بعض الشعراء صوروا جري الخيل السريعة كأنه سيل جارف دهم اليرابيع فخرجت من أنفاقها تطلب الأمان فوق الأرض[5].

وبما تقدم كله غنيت القصيدة الجاهلية نهجاً فكرياً وفنياً بهذه المشاهد على اختلاف أنواع الحيوان وتعدده وأياً كان طول المشهد وقصره. فالشعراء يتصيدون أجزاء غير قليلة من الصفات والمعاني لاستكمال تكوين صورهم التي يبسطونها في قصائدهم. ومن هنا أتوا على مشاهد الزواحف والحشرات في بنيتها لأن فيها مظاهر مغايرة لما ورد في مشاهد غيرها، وإذا كانت الطبيعة الفنية للشعر الجاهلي تستند في أحايين كثيرة إلى الإشارة السريعة واللمحة الخاطفة وتقتنص في ذاتية عالية فكرة من هنا وهناك في إطار المدح أو الفخر أو الهجاء...أو السخرية والاستهزاء، فإن أمثال تلك المشاهد اندمجت في موضوع القصيدة أو المقطعة منسجمة مع الوحدة الكبرى له نفسياً وفكرياً دون أن تبتلى بالنبوّ والتشويه، بوصفها وحدة فنية توازي وحدة البيئة والمشاعر...فالشاعر في أي مشهد عرض له كان يستجلي معنىً ما في صميم سياق المشهد أولاً والقصيدة ثانياً.

---

١ - أنساب الخيل ٨١.

٢ - ديوان أوس بن حجر ٥٨.

٣ - وَدَّ: تمنى لو يختفي. والسُّؤْبان: وادٍ في ديار بني عبس، وقيل غير هذا (معجم البلدان).

٤ - انظر ديوان أوس بن حجر ١١٩ والمفضليات ٣٨٧ والحيوان ٥/٢٥٤ و٢٧٦.

٥ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٥١ وعلقمة الفحل ٩٥.

obeikandl.com

obeikandl.com

القسم الثاني

مشهد الزواحف والحشرات

مشاهد الزواحف والحشرات في القصيدة الجاهلية صورة نابضة بالطبيعة ومعطياتها. وفيها نلمس تداخل الصفة الحسية بمدلولاتها المعنوية، كتداخل صفات حيوانات هذه المشاهد. فربما طال المشهد – على قلة المشاهد الطويلة هنا – ليعبر عن جملة من القضايا الفكرية والاجتماعية والنفسية كما وقع في مشهد الأفاعي والذباب.

وهذا يؤدي بنا إلى جعل الزواحف منفَردة عن الحشرات ومن ثم الوقوف عند الزواحف وحشرات أخرى تصيّد الشعراء منها فضل معنى، وحاكوا لهم منها أجزاء صورة من صورهم. أما مشهد الزواحف فإنه يتناول الحديث عن الأفاعي والعقارب والحرابي والضِّباب والوَرَل، على حين يعمد مشهد الحشرات إلى ذكر الجراد والذباب والنَّحْل والنَّمْل.

١- مشهد الزواحف

يبدو أن مشهد الزواحف هو مشهد الحيَّات ـ غالباً ـ إذ نقع في مشهد الأفاعي على مشاهد مطولة تقيم توازناً بين رؤية الجاهليين لها ولسُمِّها وبين ما يريدون قوله، بينما ظلت بقية الزواحف محصورة في ضَرْبها مثَلاً وعِبْرة، ولهذا خلت تماماً من المشاهد الطويلة.

١- مشهد الأفاعي

يثبت هذا المشهد أن للوصف الحسي منزلة في التعبير عن الأفكار المجردة كالقوة والحذر والخبث والشر، ويجعل أحياناً الحديث عن سم الأفاعي وسيلة إلى ذلك. فالأفاعي على اختلاف أنواعها كثرت في بلاد العرب[١]، وهذا مكنها من أن

---

١ - انظر المفصل في تاريخ العرب (جواد علي) ٤١٣/٢.

obeikandi.com

تبقى مدار حديثهم وصورهم[1]. رأوها في أطلالهم فشبهوا المرأة بها، وخبروا قدرتها وسَمَّها فقارنوا بينها وبين الفرسان والأصدقاء، والأعداء على قدم المساواة. ولهذا دخلت في باب الافتخار والمدح والهجاء في وقت واحد كما صارت ملاذاً لكثير من الأساطير.

ومن هُنا نُسجت القصص المختلفة عن الحيَّات وأنواعها سواء منها المسالم أم الذي يتقي غيره بالهجوم كالأَرْبد والأَرْقَم والشُّجاع وحَيَّة الأَرْض التي يقال لها في الشعر حية الوادي، وقد زعم بعض العرب أن في بطن الإنسان حية يطلق عليها الصَّفَر[2] وهي شجاع البطن[3]، فهي تؤذيه إذا جاع[4]. وذهبوا إلى أكثر من ذلك فجعلوا الأفاعي تطير[5]، وقرنوا بعضها بالجن فصَارت جزءاً من المعتقدات والأساطير[6]، كما عرضوا لحية البحر وأصواتها.

وقد اتخذ مشهد الأفاعي لنفسه مكانة في القصيدة الجاهلية، وحمل جانباً من صور حياة الجاهليين ومظاهر تفكيرهم وقيمهم. فلما كان ابتداء الشعراء قصائدهم بالوقوف على الأطلال انتهى نهج القصيدة إلى وصف حيوان الصحراء. وكان هذا النهج الفني شاهد ديمومة على طبيعة البيئة وحياة التبدي، كقول بشر بن أبي خازم يصور آثار الديار بالأرقم[7] من الحيات، وهو منقط بالأسود والأبيض، ومشهور بالشدة والجرأة[8]:

---

١ - انظر الطبيعة في الشعر الجاهلي (د. القيسي) ٢٠٥.

٢ - انظر مثلاً: الأصمعيات ٩٠ وسمط اللآلي ٨٢٠/٢.

٣ - انظر مثلاً: ديوان الهذليين ١٢٥/٢- ١٢٨ والوحشيات ٣٥.

٤ - انظر ثمار القلوب ٤١٧.

٥ - انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (جواد العلي) ٤١٣/٢.

٦ - انظر الحيوان في الشعر الجاهلي ٢١١ ـ ٢١٢.

٧ - الأَرْقم من الحيَّات هو الذَّكَر ويقال للأنثى رَقْشَاء، وهو من أخبثها وأطلبها للناس على ضعفه، انظر اللسان (رقم).

٨ - ديوان بشر بن أبي خازم ١٧٧.

obeikandi.com

لِمَـنِ الـدِّيَارُ غَـشِيْتُهَا بِـالأَنْعُمِ تَبْـدُو مَعَالِمُهَـا كَلَـوْنِ الأَرْقَـمِ[1]

وقد يكون بشر اتخذ اللون وسيلة إلى الحديث عن الأَنَاةِ والدِّمَنِ، بينما صوّر بعض الشعراء حركة المرأة في تلك الديار وقد أشبهت مَوَران[2] ثعبان الغضا. ويخرج الشعراء إلى باب النسيب بعد الحديث عن الأطلال فتبدو مشية المرأة وتهاديها في حركتها وتثني أعطافها اللينة كأنها الأَيْم. والأيم الحية[3] اللطيفة البيضاء المائلة إلى لون الأرض، فالمرأة تتثنى كما يتلوى أيم من الأفاعي كقول تأبط شراً[4]:

وإِذَا تَجِـيْءُ تَجِـيْءُ تَسْحَبُ خِلْتَهَا كَالأَيْم أَصْعَدَ فِي كَثِيْبٍ يَرْتَقِي[5]

فهي تميل متهادية في مشيتها فتخالها كأنها حية بيضاء ترتقي كثيباً في رقة ولين. والأيم نفسه استفيد منه لإظهار صورة أذناب الذئاب التي تعسل عند موارد الماء[6]، على حين شبهت آثار أجسام الأفاعي وهي تصدر عن مناقع الماء بآثار السياط[7].

ومخالطة الأفاعي للعرب في بيئتهم البدوية أعظم من أن يقام الدليل عليها، فهي مصدر صورهم، ومادتها، إذ اشتهرت الصحراء العربية بوجود أنواع منها، وكثرت في مناطق مختلفة كيثرب.... وعلى الرغم من ذلك أعرض الشعراء عن الوصف الحسي المباشر، إلا في مشاهد قليلة. ومن هؤلاء الشعراء عنترة بن شداد الذي ألبس الوصف الحسي لغة المجاز[8]، وجاراه في هذا الشأن النابغة الذبياني[9]، وأمية بن أبي

---

١ - غشيتها: أتيتها. والأنْعُم: اسم موضع. ومعالم الدار: آثارها مثل الرسم والنؤي.

٢ - انظر قصائد جاهلية نادرة ١٢٢.

٣ - انظر اللسان (أيم).

٤ - ديوان تأبط شراً ١٤٦.

٥ - الأيم: الحية البيضاء. وترتقي كثيباً: تميل متهادية في رقة ولين وهي تعلو تلاً من الرمل.

٦ - انظر ديوان الهذليين ١٠٥/٢.

٧ - انظر ديوان الهذليين ٢٥/٢ والحيوان ١٧٥/٤.

٨ - انظر ديوان عنترة بن شداد ٣٣٣ وهو في المعاني الكبير ٦٧٣/٢.

٩ - انظر ديوان النابغة ١٥٤ و١٥٦ والمعاني الكبير ٦٦٣/٢ والحماسة الشجرية ٩١٥/٢- ٩١٦. والحيوان في الشعر الجاهلي ١٨٩.

obeikandi.com

الصلت[1]. ويبقى مشهد الأفعى الذَّكَر في شعر الشاعر المخضرم عمرو بن شأس متميزاً في هذا الباب من جهة الوصف الحسي، ومثله كان ابن أحمر في صدر الإسلام[2].

ولعل منظر الأفعى يوحي بالشر والقوة، فاتخذه الحارث بن ظالم صورة منقوشة على شفرة سيفه لإلقاء المهابة في قلب خصمه إذا قابله، ومن هنا لُقِّب سيفه بذي الحَيَّات[3].

ولم يتوقف المشهد الحسي للأفاعي عند اللون والحركة والحجم ولكنه انتقل إلى الأثر الذي يتركه منظر الأفعى في النفس، مما جعلها صورة للنكاية والشر. وقد تتخذ هذه المعاني للأصدقاء بينما اتخذت صورة الكلاب صورة للأعداء يهرّون على الأفاعي[4]، مثلما تقع أيضاً صورة للأعداء[5].

وبهذا يرتقي البناء الفني للقصيدة مضموناً وشكلاً، فالشاعر لا يقف عند شاهد واحد من الطبيعة وصورها وإنما يسوق عدداً منها للوصول إلى الغاية والتأثير. ومن هنا يتضمن مشهد الأفاعي معايير فنية وفكرية قد تغيب في غيره. فَعدم الاقتراب من الأفعى أفضل من مطاردتها إلى سَفَاتها وصدوعها، فإذا ما دخلت جحرها فلن يقدر أقوى القوم على انتزاعها منه لشدة تعاون أعضاء جسمها[6].

وقد كره العرب مخاصمتها لأنها تلقي في النفس شراً[7] مستطيراً، كما يوضحه الفزاري[8]:

---

١ - انظر ديوان أمية بن أبي الصلت ٤٦٢- ٤٦٤.

٢ - انظر الحيوان ١٤/١٨١- ١٨٢.

٣ - انظر المفضليات ٣١٢ ق٨٨.

٤ - انظر ديوان عنترة بن شداد ٢٢٥.

٥ - انظر ديوان الأعشى ١٢١ و٢٤٣.

٦ - انظر الحيوان ٤/١١١.

٧ - انظر الحيوان ٤/١٥١ و٢١٢ و٢٤٣ و٢٤٧ والمخصص ٨/١٠٦- ١١٢.

٨ - البيان والتبيين ٢/١٦٠ والحيوان ٤/١٥٢ والمعاني الكبير ١/٢٠٨.

openkandi.com

ولــو أُخاصِــمُ أَفْعَــى نَابُهــا لَثِــقٌ أو الأَســاوِدَ فِي صُــمِّ الأَهَاضِــيْبِ[1]

أَوْ لــو أُخاصِــمُ ذِئْبــاً فِي أَكِيْلَتِــهِ لجاءَني جَمْعُهُمْ يَسْعَى مَعَ الذِّيْبِ

فالأفعى ضُربت مثلاً في الظلم، فقيل: أظلم من حية[2]، لأنها تحتل مكان غيرها حتى يهرب أهله منها، ولعلها اقترنت في هذه الصفة بصورة الأسد[3]، حتى غدت مدعاة للخوف أينما حلت. فإن لدغت إنساناً كانت سبباً في إيذائه أو موته، فهي التي سببت في قطع إصبع حُرْثان بن السَّمَوأل حتى لقب بذي الإصبع العدواني[4].

ولهذا كله ضربت مثلاً للرجل الذي يوقع النكاية بأعدائه، فيَدٌ له مُدَّت للأعداء كأنها السُّمُّ الدُّعَاف، ويده الأخرى جُعلت لخير الأصحاب كأنها العسل[5]. وصورة الأفعى عند طرفة بن العبد مَثَل للشجاعة والتوقد، فهو يفتخر بأنه خفيف لطيف حذر فطن ماض في الأمور نشط كثير الحركة كرأس الحية[6]:

أنا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ خُشَاشاً كَرَأْسِ الحَيَّةِ المُتَوقِّدِ[7]

وفي مشهد الأفاعي يتقدم الشُّجَاع قبل غيره، والشجاع الحية الذَّكَر، وهو ضَرْب من الحيات صغير خبيث[8] مارد جريء حتى إنه لا يُرى، ولهذا حُكِيت عنه الأساطير[9]. وهو يساور الإنسان، ويجري ولا يكاد يلحق، وصفة الإطراق التي اشتهر بها ترشح موتاً[10]، وقد تبرز صفة مدح لأن الممدوح يكيد الأعداء كيداً،

---

١ - اللَّثِق: اللَّزِج والبَلِل.

٢ - انظر الحيوان ١٤٩/٤ ومجمع الأمثال ٤٤٥/١ ومحاضرات الأدباء ٦٨٦/٤.

٣ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ١٢٤ والأعشى ١٠١.

٤ - انظر الأغاني ٩١/٣ والمصون في الأدب ١٧٠ وسمط اللآلي ٢٨٩/١.

٥ - انظر مثلاً: ديوان طرفة بن العبد ١٧٥ والنابغة الذبياني ١٨٣.

٦ - ديوان طرفة بن العبد ٤٢ وانظر شعر الحرب في العصر الجاهلي ٩٩ و٤٧٠.

٧ - الضَّرْب: اللطيف. والخشاش: الماضي في الأمور والذكي. والمتوقد: الذكي كثير الحركة.

٨ - انظر اللسان (شجع) وفقه اللغة ١٦٢ ورسالة الصاهل والشاحج ٣٠٨.

٩ - انظر المفصل في تاريخ العرب ٤١٣/٣ و٤٧/٥ والحيوان ١٣٣/٤ والمعاني الكبير ١٦٧/٢ وسمط اللآلي ٢٣/١ وثمار القلوب ٧٧ و٢١٠ و٤٢٢ ومروج الذهب ٧١/١- ٧٢.

١٠ - انظر مثلاً: نضرة الإغريض ٢١٤- ٢١٥ وانظر الحيوان ١٣٦/٣ و٢٦٣/٤ وثمار القلوب ٤٢٧.

obeikandl.com

كقول المتلمس في خاله يعاتبه[1]:

فأَطْرَقَ إِطْراقَ الشُّجَاعِ ولو يَرَى مَسَاغَاً لِنابَيْهِ الشُّجَاعَ لَصَمَّمَا[2]

فالشجاع أجرأ الحيات وأخطرها وأدقها جسماً وكأنه يُلاقي بذلك حية الأرض التي تشبَّه بها الرجال. فهي صورة للموت، لهذا يمضي بعض الشعراء في مقارعتها[3]، وينسبونها إلى مكان ما[4]، ويجعلون الرُّقْيَة غَيْر نافعة معها[5]، فلبيد بن ربيعة يستخف بأبي مالك لأنه لا قِبَل له بقوم لبيد الذين يشبهون حية الوادي مهما يمتلك من أدوات الرقية فيقول[6]:

هُمُ حَيَّةُ الوادي فإِنْ كنتَ رَاقياً فدونَكَ أُدْرِكْ ما ازْدَهَوْا مِنْ فِنَائِكا

وبهذا يستقيم المعنى الذي أراده لبيد من القصيدة حين جعله راعياً ينعق بضأنه، فلا شأن له بعظيمات الأمور. وحية الأرض لا تكون إلا ذكراً، وبها ضرب المثل للرجل المنيع والداهية[7]. ومن أجود المشاهد التي جمعت هذا المعنى إلى جانب المعاني السابقة، وحازت شيئاً من الصفات الحسية ما أورده عمرو بن شأس في قوله[8]:

إيَّاكَ إيَّاكَ أَنْ تُمْنَى بِدَاهِيَةٍ وَقْشَاءَ لَيْسَ لها سَمْعٌ ولا بَصَرُ[9]

لاَ يَنْبُتُ العُشْبَ في وادٍ تكونُ به ولا يُجَاوِرُهَا جِنٌّ ولا بَشَرُ

خَشْنَاءُ شَائِكَةُ الأَنْيَابَ ذَابِلَةٌ يَنْبُو مِنَ اليُبْسِ عَنْ يَافُوخِها الحجَرُ[10]

---

١ - ديوان المتلمس ٣٤ ووردت القصيدة في الأصمعيات ٢٤٦ ق٩٢ والحماسة البصرية ٤١/١.

٢ - الشُّجَاع: الحية الذَّكَر، وهو يساور الإنسان. والمَسَاغ: سهولة مدخل الشراب في الحلق.

٣ - انظر ديوان عبيد بن الأبرص ٤٨ و(صادر) ٦٣.

٤ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٢٤٣.

٥ - انظر مثلاً: شعر خداش بن زهير ٨٥ والوحشيات ١٤٧ والشعر والشعراء ٦٤٧.

٦ - شرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٣١.

٧ - انظر اللسان (حيا) والأصمعيات ٧٢ ق١٨ والوحشيات ١١١.

٨ - شعر عمرو بن شأس ٨٠- ٨١ وورد الشعر في الحيوان ٣٠٩/٤ واختلفت الرواية بينهما.

٩ - وقشاء: من الوَقْش، وهو الصوت والحركة.

١٠ - شائكة الأنياب: حديدتها.

obeikandl.com

لـو سُـرِّحَتْ بالنَّـدَى مـا مـسَّها بلَـلٌ ولَـوْ تَكنَّفَهـا الحَـاوُونَ مـا قـدَرُوا
قَـدْ جاهَرُوهـا فمـا قَـامَ الرُّقَـاةُ لهَـا وخَاتَلُوهَـا فَمَـا آبُـوا ولا ظَفِـرُوا
تَقَـصَّر الـورَلَ العَـادِي بـضَرْبتَها نكْـزَاً ويهـرُبُ عَنْهـا الحَيَّـةُ الـذَّكرُ[1]

فالشاعر ينذر بأنه داهية وقشاء لا يقدر الرقاة عليها مهما يكن مدى علمهم بالسِّحْر، أو مهما يكن عددهم وأدوات رُقيِّهم. وقد ذكر المُهَلهِل في أخيه شيئاً من هذا، ولكنه ينعت الحية بالحزم والشدة، ويجعلها في وجارها ويصف لونها الأربد، وهو لون السواد والغُبْرة الذي يميل إلى الاحمرار[2] عند الغضب والأربد ضَرْب من الحيات لا يقل خبُثاً[3] وجرأة عن حية الأرض. وبذلك فقَدَ المهلهل في أخيه كليب رجلاً خَصيماً لأعدائه، لا ينفع منه نفث الرقاة، فيرثيه قائلاً[4]:

إنَّ تَحْـت الأَحْجـار حَزْمـاً وَجُـوداً وخَـــصيماً أَلَـــدَّ ذا مِعْـــلاقِ[5]
حَيَّـةٌ في الوِجـارِ أَرْبَـدُ لا يَنْفَـعُ مِنْـهُ الـسَّلِيمَ نَفْـثُ الرَّاقـي

فمشهد الأفاعي باب مفتوح لتناول المسائل الفكرية وإسقاطها على الممدوح أو المرثي أو على المهجو والمعاتَب، أو على المفتخر. ولعل في أنواع الأفاعي وألوانها وأشكالها ما قوّى تعدد النظائر غير الثابتة في القصيدة الجاهلية، لأن مشهد الحيات يوحي بأكثر من قضية ولا سيما الحية الذكر أو حية الوادي. فالمشهد السابق يرسم ملامح شخصية كليب مثلما يرسم مشهدٌ آخر ملامحَ هيئة النعمان بن المنذر في رثاء النابغة له. فقد جعله صِلاً من الحيَّات الذكور، وهو يحمل القدرة والشجاعة وطول العمر وهيهات الخلود للبشر[6]. فالصِّلُّ داهية الأفاعي حتى قيل: إنها لا تموت حتف

---

١ - الوَرَل: حيوان فوق الضَّب يأكل الحيات.
٢ - انظر اللسان (ربد).
٣ - انظر الحاشية السابقة.
٤ - التعازي والمراثي ٣٠٠.
٥ - المِعْلاق: أراد إذا عَلِق خصمه بلغ منه. والأَلَدُّ: الشديد الخصومة.
٦ - انظر ديوان النابغة الذبياني ١٦٥.

obeikandl.com

أنفها، وتقتل إذا نَهشت من ساعتها[1]، ولا ينفع معها سحر ولا رُقَى.

وإذا كان هذا ينبهنا على عادات العرب في الرُّقْيَة من سُمِّ الأفاعي[2] فإنه ينقلنا إلى الحديث عن السُّمِّ نفسه في المشاهد المختلفة. فالسَّليم المُعذَّب دخل في المشاعر الإنسانية تجاه الأحبة، حتى غدا عامر بن الطفيل أشبه به حين علق قلبه ابنة العَمْرِي[3]، بينما أورثت المحبوبة سَقَماً في قلب عبيد بن الأبرص، فهو يعاوده عياداً كسم الحية المتردد[4].

وقد تقع على مشاهد مختلفة لسم الأفاعي، بيد أن الطرافة تبلغ حد التخييل حين تخلع الحية جلدها ليلبسه الأبطال، فيغدو فعلهم تصريحاً بالشر واستعداداً لكل مكروه[5]. فالأفعى تسلخ جلدها كل عام[6]، ولكن بعض الأخبار تجعل هذا تجدداً لحياتها فضرب بها المثل في طول العمر[7]، مثلما قيل فيها: أَعْرَى من حية[8].

ولا يسع المرء بعد ذلك كله إلا أن يقول: بقي على الأفعَى أن تنطق وتتحدث. وهذا زعم ذهب إليه بعض العرب[9]، مثلما أكلها بعضهم وصادها[10]. ومن أطرف المشاهد التي تتحدث عن صوت الأفاعي ما أورده ابن الذئبة الثقفي حين شبه بعض القوم بالأفاعي البحرية التي تُصَوِّت ليلاً، وجمع هذا إلى الضفادع، وكأنهم صرحوا له بالشر فقال[11]:

---

١ - انظر اللسان (صل) وديوان تأبط شراً ٢٤٨ وتأويل مختلف الحديث ١٣١.

٢ - انظر مثلاً: ديوان أمية بن أبي الصلت ٤٦١- ٦٢ والحيوان ١٨٦/٤- ١٨٧ وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي ٢١١- ٢١٢ و ٢٣٧ ـ ٢٣٨ و ما بعدها.

٣ - انظر ديوان عامر بن الطفيل ٢٦.

٤ - انظر ديوان عبيد بن الأبرص ٥٣ و(صادر) ٦٦.

٥ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ١٢٤ وقيس بن الخطيم ١٨٣ وشعر خداش بن زهير ٨٠.

٦ - انظر عيون الأخبار ٩٦/٤ والعقد الفريد ٢٣٥/٧.

٧ - انظر اللسان (حيي) ولمحنا شيئاً من هذا في ملحمة جلجامش ١٠٣، وانظر جمهرة الأمثال ٢٠/٢.

٨ - انظر ثمار القلوب ٤٢٦ وجمهرة الأمثال ٣٤/٢.

٩ - انظر مثلاً: ديوان عدي بن زيد ١٥٩.

١٠ - انظر الحيوان ١٧٩/٤ و١٨٧ و١٨٩ و٢٦٤ و٣٠٢ ورسالة الصاهل والشاحج ١٥٢.

١١ - سمط اللآلي ٧٩٢/٢.

obeikandi.com

ما بالُ مَنْ أَسْعَى لأَجْبُرَ عَظْمَهُ حِفاظاً ويَنْوِي مِنْ سَفاهته كَسْرِي

ضَفادعُ في ظَلْماءِ لَيْلٍ تجاوبَتْ فَدَلَّ عَليْهَا صَوْتُها حَيَّةَ البَحْرِ

ولعل في هذا المشهد شيئاً من الطرافة، ولكنه يبقى دون ما ورد في بعض أشعار الجاهليين كما ورد عند النابغة الذبياني حول الحية الصفراء. فمشهد هذه الحية يحكي قصة رجل هوى بفأسه عليها ليقتلها انتقاماً لأخيه الذي أودت بحياته، ولكن حواراً دار بينهما انتهى إلى عقد مصالحة قائمة على تبادل المنفعة، فهي تقدم كل يوم جزءاً من المال مقابل أن يعفو عنها ولكن حمية الرجل وجشعه ورغبته في قتل عدوه والحصول على المال جعل منه رجلاً عاقداً العزم على التخلص من الحية الصفراء نهائياً. وبهذا كله يمثل المشهد قصة الصراع بين أبناء البشر، فإذا كان الشر واقعاً فالصلح أفضل للناس جميعاً وإن انطوت النفوس على الضغينة، ثم إن هذه القصة قصّة ترمز إلى تكثيف الدلائل الاجتماعية التي جرت أحداثها بين النابغة ويزيد بن سنان المُرِّي حين نشبت عداوة بينهما نتيجة تحالف يزيد وقومه على النابغة وقومه ذبيان، فجاء بقصة (الحية الصفراء) مثلاً لهم، ومن ذلك قوله[1]:

وإنِّي لأَلْقَى مِنْ ذَوي الضِّغْنِ منهمُ وما أَصْبَحَتْ تشكُو مِنَ الوَجْدِ سَاهِرَهْ

كمَا لَقِيَتْ ذاتُ الصَّفَا مِنْ وما انفَكَّتِ الأَمْثَالُ في النَّاسِ سَائِرَهْ

فما انفكت قصة الحية الصفراء وذلك الرجل سائرة بين الناس تنتقل في الأفهام مرتبطة بطلب الثأر من الأفاعي، ومن تجرأ على فعل ذلك أوذي، ولا سيما أن كثيراً من أنواع الأفاعي دخلت في معتقدات العرب حول الجن[2].

ومن هنا زخر مشهد الأفاعي بجملة من الأساطير والخرافات، أما خرافة الحية الصفراء فقد ظلت في إطار الحكمة والموعظة رجاء إظهار ما يدور من أحداث الجشع والطمع في النفس البشرية على حين ظهرت جملة من الأساطير المرتبطة بالخَلْق

---

١ - ديوان النابغة الذبياني ١٥٤ وانظر المسبار في النقد الأدبي ٣١.

٢ - انظر سورة الأعراف ١٠٧/٧ و١١٦- ١٢٠ وتفسير الطبري ١٠/٩ و١٤- ١٦ وصحيح البخاري ١٥٤/٤ وحياة الحيوان الكبرى ١٢٥/١ ومجمع الأمثال ١٤٥/٢ وخاص الخاص ٢٣ واللسان (رقم) وتأويل مختلف الحديث ١١٢.

obeikandl.com

والتكوين نتيجة التأثير الديني مما حملته بعض الديانات السماوية. فالأفعى عند عدي بن زيد وأمية بن أبي الصلت مِسْخ من جمل، إذ كانت في بداية الكون على شاكلة الناقة أو الجمل، ولم يبتعد هذا كثيراً عما وقع في أخبار عبيد بن الأبرص[1].

تلك هي التقاليد الكبرى لمشهد الأفاعي في القصيدة الجاهلية ولا يغترب ما وقع في مشهد العقارب عنها ولا سيما ما قيل عن سمها وشوكتها.

٢- مشهد العَقرب

مشهد العقارب كثير الشبه بمشهد الأفاعي، فهو صورة للخبث والكيد، والعَقَارب جمع عَقْرب من الهوام يكون للذكر والأنثى، وقد يقال للأنثى عَقْرَبة[2]. وإذا كان سم الأفاعي بأنيابها فإن سم العقارب بشوكتها التي تسلحت بها في ذَنَبها، وإذا لسعت إنساناً فربما تناثر لحمه[3]، فالعقرب تتهيأ لضرب فريستها بها كما يقول تأبط شراً[4]:

فإنْ أَكُ لمْ أَخْضِبْكَ فِيْها فإنَّها نُيوبُ أَساوِيدٍ وشَوْلُ عَقَارِبِ[5]

وهذا المشهد يؤكد أن تأبط شراً وظف سلاح العقارب والأفاعي لإظهار صفاته في إطار الفخر الذاتي، وقل أن وقعت مشاهد العقارب على مثل هذا النحو. ومن ثم فهذه المشاهد مرتبطة بالأفاعي - غالباً - في صور من ضروب الهجاء والعتاب. فالمتلمس شبه طباع الناس في الخبث[6] بالعقارب والأفاعي، وطرفة بن العبد رأى فيها[7] صورة للضغائن التي ملأت نفوسهم عليه، بينما كانت صورة العقارب عند الأعشى مثلاً للكيد والأذية، لأن الناس سدوا عليه كل منفذ كالعقارب فيقول[8]:

---

١ - انظر الحيوان ١٩٦/٤- ٢٠٥ ومروج الذهب ٧٢/١ والأغاني ٨٩/١٩ وعجائب المخلوقات ٣٩٦.

٢ - اللسان (عقرب).

٣ - انظر حياة الحيوان الكبرى ١٣٧/٢ والحيوان ٣٩/٤ و١٢٦ و٢٢٢ و٣٦٣/٥.

٤ - ديوان تأبط شراً ٦٢.

٥ - أَخْضِبُك فيها: أي يخضبه بالدم بتلك الأسلحة. وشالت بذَنَبها: رفعته وتهيأت للضرب.

٦ - انظر ديوان المتلمس ٣٤ والوحشيات ١١٢ وانظر الحيوان ٢٢٧/٤.

٧ - انظر ديوان طرفة بن العبد ٢٣٦.

٨ - ديوان الأعشى ١٤٩.

أرَى النَّـاسَ هَرُّونـي وشُـهِّرَ مَـدْخَلي وفي كُلِّ مَمْشَىً أَرْصَدَ النَّاسُ عَقْرَبَا

وصـارت العقـارب إحـدى صـور التشبيه[1] للأعـداء ومـن ماثلهم. ومـا عهـدنا لهـا المشاهد المطولة في القصيدة الجاهلية شأنها في ذلك كله شـأن الحرابـي والضّباب والورل وغيرها من الزواحف.

٣- مشهد الحرباء

الحِرْبـاء دُوَيْبـة نحـو العَظَـاءَة أو أكـبر ذات قـوائم أربـع دقيقـة الـرأس، مخططـة الظهـر واللفـظ يقـع علـى الـذكر، والأنثـى الحِرْبـاءَة وتكنـى أم حُـبَين، والجمـع الحَرَابـيُ. والحربـاء يـستقبل الـشمس بعينيـه ليـستدفئ بهـا فيكـون معهـا كيفمـا دارت، ويتلون ألواناً بحَرِّهَا، وينتصب فوق الحجارة، وإذا عـلا الشجر فهـو لا يفـارق الغُصْن الأول إلا ليثبت على الثاني[2].

وربمـا أرسـى مـشهد الحربـاء في القـصيدة مثـل ذلـك ، فالحربـاء مـضرب المثـل لشدة الحَرّ في الفلاة القاحلة إذا صام النَّهار[3]. فتراه يقلب رأسه مع الشمس، وكلما ازداد حَرُّ الشمس اخضر لونه[4] ، وإذا أكره على شيء ربما صار ساماً. ويوضح ذلك قول عبيد بن الأبرص[5]:

أَرْمِـي بِهَـا عُـرُضَ الـدَّوِّيِّ ضَـامِزَةً في ساعَةٍ تَبْعَثُ الحِرْبَاءَ مَسْمُومَهْ[6]

---

١ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٥٦ وعروة بن الورد (ابن أبي شنب) ١٩ و١٥١ و١٤٣ والنابغة الذبياني ١٦٠.

٢ - التاج واللسان (حرب) وانظر الحيوان ١٤٥/١ و٢٠/٦- ٢١ و٣٨٨ وحياة الحيوان الكبرى ٢٣١/١ والأَعْراب تنفر من الحرابي ولا تأكلها، انظر الحيوان ٢٥٦/٣ و١٤٣/٦ و٤٨٥، واللسان (حرب) وقيل: كان بعض الأعراب يأكلها، نظر الحيوان ٣٨٨/٦.

٣ - انظر مثلاً: شعر أبي دواد ٣٢٦ وديوان بشر بن أبي خازم ٤٥ و١٩٨ والأعشى ١٧١ والعباس بن مرداس ٦٨- ٧١ وحياة الحيوان الكبرى ٢٣١/١.

٤ - انظر مثلاً: ديوان عدي بن زيد ١٤٦ وشعر أبي دواد ٣٢٦ والحيوان ٣٦١/٦ وسمط اللآلي ٤٧٩/١.

٥ - ديوان عبيد بن الأبرص ١٢٩ و(صادر) ١٣٦.

٦ - الدَّوِّيَّة: الفلاة الواسعة. والضامزة: من ضَمَز البعير. إذا لم يجتر، كناية عن شدة الحر.

obeikandl.com

فمشهد الحِرْباء ذو دلائل مختلفة على افتخار الشعراء بأنهم يقطعون الفيافي على رواحلهم لا يرى فيها إلا الحرباء. وربما كان التلون الذي يحدث له حَمَل بعض الشعراء على تشبيه مسامير الدروع به[1]، علماً أن الحرباء في اللغة يعني مسمار الدرع أو رأس المسمار[2]. وبهذا كله يؤدي مشهد الحرباء إلى مشهد الورل والوَرَل أحد حيوانات البادية التي تتغذى على الحرابي.

٤- مشهد الورل

الوَرَل على خِلْقة الضَّبِّ غير أنه أعظم منه وأطول ذَنَباً وكأن ذنبه حية، وقد يُرْبي طول الورل على ذراعين، وجمعه أَوْرَال ووِرْلان والأنثى وَرْلة[3].

والورل أقوى براثن من الضب، وهو يجاوره في السَّكَن، وقد يستولي عليه، ويصيده[4]، كما أنه يخرج الأفاعي من جحرها، ويأكلها أكلاً ذريعاً، وربما وُجد في جوفه إحداها كاملة[5]، فهو عدو لمختلف أنواع الأفاعي وإن ادعى عمرو بن شأس أنه عجز عن واحدة منها[6]. والورل يخاف من الثعلب[7] وهو إحدى فرائس العقاب[8]. وعلى ندرة الإشارة إلى هذه المعاني في القصيدة الجاهلية بيد أن الشعراء استمدوا من طبيعة حياته وهيئته بعض صور التشبيه. فكان شكله ملاذاً لأبي دواد الإيادي، إذ شبه لسان فرسه به فقال[9]:

عَنْ لِسَانٍ كجُثَّةِ الوَرَلِ الأَحْمَرِ مَجَّ النَّدَى عَلَيهِ العَرارُ

---

١ - انظر اللسان (حرب) وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٩٢.

٢ - انظر الحاشية السابقة.

٣ - انظر اللسان (ورل) ومحاضرات الأدباء ٦٨٤/٤.

٤ - انظر الحيوان ١٥٠/٤ و٢٠/٦ و٤٣ و٤٦ و٦٨ و٤٥٧ و٤٥٩.

٥ - انظر الحيوان ١٤٩/٤- ١٥٠ و٥٣١/٥ و٤٦/٦ و٥٥ و٣٩٩ و٤٥٧- ٤٥ و٢٢٢/٧ و٢٥٤ ومحاضرات الأدباء ٦٨٤/٤ واللسان (ورل).

٦ - راجع ما تقدم ٣٣٥.

٧ - انظر الحيوان ٣٩٩/٦.

٨ - انظر اللسان والتاج (عقب) و(ورل).

٩ - شعر أبي دواد ٣١٨ ق٣٤ وانظر الحيوان ٧٢/١ و٤٦٠/٦.

obeikandl.com

والورل من الحيوانات التي امتنع أغلب الأعراب عن أكلها، ولم يقتلوه[1] هو والضَّب. ومشهد الضَّبّ في الشعر الجاهلي أوفر حظاً من مشهد الورل والوَزَغَة، والوَزَغَة دُويبة مؤذية تصادق الحيات خلافاً للورل أو الضب الذي يصارع الحية[2] وإن اغتصبت بيته أحياناً.

٥- مشهد الضب

الضَّبُّ مفرد ضِبَاب وأَضُبّ وضُبّان، والأنثى ضَبَّة، وهو أقل حجماً من الورل. ويشابهه في الخِلْقَة، وقد يبلغ حجمه قدر تمساح صغير وذنبه مثله، ويتلون ألواناً بحر الشمس كالحرباء، وذنب الضّب سلاحه وهو ذو عُقَد وخَشِن، ويقال لصغاره أَحْسَال وحِسَلة وحُسُول ومفردها حِسْل[3]. والضب لا يأكل الهوام وإنما يتغذى بالجنادب والدَّبَا والعشب، ولعل هذا سبب مشجع لإقبال الأعراب على أكله[4].

وخُص الضب بعدد من الصفات[5] والأخبار، فهو أطول الحيوان نَفَساً وأصبره على الجوع، إذ يتغذى بالنسيم، ويستغني عن الماء، وقيل فيه: إنه لا يَرِده[6]. ولما كانت سن الضب لا تسقط قيل: لا آتيك سن الحِسْل[7]. وضُرب مثلاً في العقوق، لأنه يأكل حسله[8]، وحيكت القصص حول الضَّب مع الضفادع[9] والنون، وغيرها[10].

---

١ - انظر الحيوان ٤/٣٤ و٤٦٩ و٦/٤٦ و٧/٢٥٥.

٢ - انظر الحيوان ٦/١٢١ و٤٥٩.

٣ - انظر اللسان (ضب) و(حسل) و(ورل) والحيوان ١/١٥٠ و٦/٢٠ و٤٥٧ وحياة الحيوان الكبرى ٢/٧٧- ٧٨ وسمط اللآلي ١/٥٣٤.

٤ - انظر الحيوان ٤/٤٣- ٤٤ و٩٦ و٥/٢٥٣ و٦/٧٧ و١٠١ و١٤٣ و٣٨٥ وحياة الحيوان الكبرى ٢/٨٠ وسمط اللآلي ٢/٦٦١.

٥ - انظر الحيوان ٦/٥١ و٧٧ و١١٦ و١١٨ و١٣٧- ١٣٨ وحياة الحيوان الكبرى ٢/٧٨ وثمار القلوب ١٥.

٦ - انظر الحيوان ٤/١٢٨ و١٧٢ و٦/٥٦ و١٢٨- ١٢٩ و٨٢، وثمار القلوب ٤١٦.

٧ - انظر اللسان (حسل) ومجمع الأمثال ١/٥٠٩ والمستقصى في أمثال العرب ١/٢٥٠ وثمار القلوب ٤١٧.

٨ - انظر الحيوان ١/١٩٦- ١٩٧ و٤/١٧٢ و٥/٣٢٨ و٦/٤٩ و٥٢ و٨٥ و٧/٦٨.

٩- انظر الحيوان ٦/١٢٥ و٧/٢٠٧.

١٠ - انظر مثلاً: الحيوان ١/٢٩٧ و٣٠٨ و٤/٦٨ و٦/٧٧ و٧٩ و١٤١ و١٥٥ و٤٧٧ وسمط اللآلي ٢/٦٨١.

obeikandi.com

وقد يضيف مشهد الضب إلى ذلك كله بعض الأمور الأخرى، فالشعراء تناولوها في إطار من التمثيل والعِبْرة[1]. وإذْ كان الضب لا يأبه لذِي قرابة أو نسب هُجي بفعله هذا، وضُرب مثلاً للرجل الذي يتنكر لقومه وأهله، كما يوضحه قول سهم بن حنظلة الغنوي[2]:

لاتَكُ ضَبًّا إذا اسْتَغنَى أَضَرَّ وَلَمْ يَحْفِلُ قرابةَ ذِي قُرْبَى ولا نَسَبَا

ولما صار لا يموت حتف أنفه، وغدا مثلاً للعقوق جعله خداش بن زهير صورة لأعدائه وهجائهم بأنهم لا قِبَل لهم بقومه فهم لا يقدرون إلا على أكل بعضهم بعضاً كالضّباب[3]:

ثُمَّ ارْجِعُوا فَأَكبُّوا في بيوتِكُمُ كما أكَبَّ على ذِي بَطْنِهِ الهَرِمُ

واتخذ الحادرة الذبياني سن الحِسْل مدعاة للحديث عن افتقاد صاحبته وغيابها فقال[4]:

ولَقَدْ عَرَفْتَ لئِنْ نَأَتْ وتباعَدَتْ أَلاَّ تُلاقِيهَا سِنِي الحِسْلِ

وكل ما تقدم يبقى دون ما عرف عن أبي الجبار ـ وهي كنية الضب ـ لأنه يبني بيته في الأرض الصلبة والممتنعة من السيل والأعداء. ويساعده على هذا براثنه القوية وإن كانت أقل قوة من براثن الورل، ولهذا أطلق عليه ضب الكُدْيَة[5]. وقد يكون هذا جعله مثلاً للشعراء حين يُبكّتُون به الأشخاص[6]، وكأنهم يرمونه بالحقد حين حفر لنفسه جحراً بعيداً عن المتناول. ولعل دريد بن الصمة واحد ممن ترقب الضب طويلاً في ساعة الظهيرة، على حين أن الضّب جعل هذا الوقت مقيلاً له، فقال[7]:

---

١ - انظر مثلاً: حياة الحيوان الكبرى ٢/٧٨.

٢ - الأصمعيات ٥٥ ق١٢.

٣ - شعر خداش بن زهير ٩٤.

٤ - ديوان الحادرة الذبياني ٨١.

٥ - انظر الحيوان ٤/١٠٥ و٦/٣٩ و٧٧ وثمار القلوب ٤١٤ وسمط اللآلي ٢/٦٩١.

٦ - انظر مثلاً: ديوان حاتم الطائي ٦٢ و٦٣ والأعشى ٣٢٣ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٢٥.

٧ - ديوان دريد بن الصمة ١٠٤.

openkanar.com

وَجـدْنا أبـا الجَبَّـارِ ضَـبّاً مُوَرَّشـاً لـهُ في الـصَّفَاةِ بُـرْثُنٌ ومَعَـاوِلُ[1]

لـهُ كُدْيَـةٌ أَعْيَـتْ عَلـى كُـلِّ قَـابضٍ ولَـوْ كـانَ مِـنْهُم حَارِشَـانِ وحَابِـلُ[2]

ظَلِلْـتُ أُرَاعِـي الـشَّمْسَ لـولا مَلاَلِـتي تَـزَلَّـعَ جِلْـدِي عِنْـدَهُ وهْـوَ قَائِـلُ[3]

فهـذا المشهد يتنـاول شـيئاً مـن صفات الـضب الحسية في إطـار معنـوي معبر، فيطيل التأمل فيها، حتى عُدَّ من المشاهد العزيزة[4] للضب، وطالما اقتنص الشعراء منه صفاتهم في أبياتهم المفردة. فهو مثل للفطنة والكياسة[5]، وهـذا نقيض ما قيل عنه من الخبث والنسيان وسوء الهداية[6].

وهكذا استعمل الضب في الشعر الجاهلي حكاية لإحدى صفاته على حين ندر أن تعرض للوَزَغة. والوزغة على خِلْقَة الضب ويقال له سام أَبْرَص، وجمعه أَوْزَاغ ووزَغ ووِزْغَان[7]. وهو دويبة مؤذية يطاعم الحيات ويصادقها[8]، وربما قتله الناس لهذا وإن جاورهم في السكن[9]، وهو يصطاد الذباب[10]، ويأكل العشب.

وهـذا يقـود إلى الحـديث عـن مـشاهد الحـشرات الـتي تمثل الطبيعـة الجامـدة أحسن تمثيل.

---

١ - المورش: اسم مفعول من التوريش، وهو إغراء الضب للخروج من جُحْره.

٢ - الحارش: الذي يحك جحر الضب ليخرج فيصطاده لأن الضب يظن الحارش أفعى.

٣ - القائل: الذي يقيل في الظهيرة.

٤ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٤٣- ١٤٤.

٥ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٨٧ وانظر الحيوان ٤٤/٦.

٦ - انظر الحيوان ٤٢/٦ و٦٥ و٦٧ و١٣٥.

٧ - انظر اللسان (وزغ) والحيوان ٢٠/٦ وحياة الحيوان الكبرى ٣٩٩/٢.

٨ - انظر الحيوان ٦٩٤/٣ و٢٩٠/٤ و٢٩٧ و٣٩٦/٥.

٩ - انظر الحيوان ٣٠٤/١ و٢٨٦/٤ و٢٩٦.

١٠ - انظر الحيوان ٣٣٨/٣ و٢٢٣/٤ و٢٠٠/٦.

obeikandl.com

٢- مشهد الحشرات

خلق الله – جل وعلا – أنواعاً من الحشرات لا يكتشف أمرها إلا ذو بصر وبصيرة. ومن هنا يرتفع مشهد الحشرات في القصيدة الجاهلية إلى منزلة خاصة، لأنه يوحي بأنه نتاج عقل مبدع يتضمن من الدلائل الفكرية والنفسية والفنية ما لا يمكن أن يحيط القلم به، وهو صورة معبرة عن جملة من الأمور المختلفة في الحياة والطبيعة.

وبهذا كله يظل مشهد الحشرات صورة للإبداع المستند إلى الطبيعة الحية والجامدة على السواء فوق ما حصله أصحابه من التجربة والثقافة. وإذا كانت رؤية الطبيعة واحدة فإن تمثُّلَها يختلف من شاعر إلى آخر. ولهذا كله كان مشهد الجراد ذا دلائل فكرية ونفسية مغايرة على اختلاف صوره لما ورد في مشهد الذباب أو النَّحْل أو النَّمْل، علماً أن مشاهد الحشرات كلها استمدت من الصفات الحسية شيئاً من الإلهام ولا سيما اللون والصوت والحركة. ولا بد من بيان ذلك.

١- مشهد الجراد

يتناول مشهد الجراد تعريفاً لهذا النوع من الحشرات ثم يعرض لمعطياته في القصيدة الجاهلية. فالجراد شكّل عدداً من صور الجاهليين وصار جزءاً من صلب تفكيرهم وحياتهم، فهو رمز للفناء وواحد من الصور في تشبيه الدروع والخيل والنَّبْل والسَّحَاب وغير ذلك.

والجراد معروف لفظ يقع على الذَّكَر والأنثى، والمفرد والجمع فيه سواء، ويقال للأنثى جَرَادة[١]، وتكنى أم عَوْف[٢]، ويقال للذكر جُنْدب وجمعه جَنَادب[٣]. وأول ما تخرج الجرادة من البيض تكون دَبَاً، والواحدة دَبَاة[٤]، فإذا صارت ذات خطوط مختلفة الألوان أطلق عليها خَيْفَانَة، والجمع خَيفان[٥]. وفي هذا الوقت تكون

---

١ - انظر اللسان (جرد).

٢ - انظر محاضرات الأدباء ٦٨٣/٤.

٣ - انظر اللسان (جدب) وحياة الحيوان الكبرى ٢٠٣/١.

٤ - اللسان (دبى) وانظر حياة الحيوان ٣٢٥/١- ٣٢٦ وانظر مثلاً: ديوان لقيط بن يعمر ٣٩.

٥ - اللسان (خيف).

obeikandl.com

خفيفة وسريعة، وتميل ذكور الجراد إلى الصفْرة بينما تنحو الإناث إلى السواد[1]. ولعل من أهم صفات الجراد على اختلاف أسمائه[2] أنه إذا تجمع في أرض أسرع إليها الخراب، فهو ينتشر فيها فلا يبقي على شيء. ومن هنا سميت الأرض التي لا نبات فيها مجرودة[3]، وقيل: أجرد من جراد[4].

فلا غرو أن يصبح الجراد رمزاً أبدياً للفناء والدمار[5]. وهي الصورة التي تراها في القرآن الكريم في معرض ما أصاب فرعون وأصحابه من العذاب[6]. والأَسْوَد من الجراد يترك أثراً في الأرض[7]، وكل الجراد يقفز من الرمضاء ويصر في الحر[8]، فالجراد المنتشر يدل على الكثرة[9]، والتجمع ومن أمثلة هذا في الشعر قول الأفوه الأودي[10]:

بمناقبٍ بيضٍ كأَنَّ وُجوهَها ... زُهْرٌ قُبَيْلَ تَرَجُّلِ الشَّمْسِ

رَفُّوا كمُنْتَشِرِ الجرادِ هَوَتْ ... بالبَطْنِ في دِرِعٍ وفي تُرْسِ[11]

فالمشهد السابق يحمل معاني عدة فهو يأخذ من الكثرة طرفاً ومن عيون الجنادب نصيباً. وهذا ينقلنا إلى مسامير الدرع التي شبهت بحَدَق الجراد[12] في الاستدارة وصغر الحجم، كقول قيس بن الخطيم[13]:

---

١ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٧٤ وانظر الحيوان ٣/٣٢ و٤/٧١ و١٧٤ و٥/٣٧٠ و٥٥٩.

٢ - انظر الحيوان في الأدب العربي ١/٢٦١- ٢٦٤.

٣ - انظر شرح ديوان لبيد بن ربيعة ١١٤.

٤ - جمهرة الأمثال ١/٣٣٥.

٥ - انظر ديوان أمية بن أبي الصلت ٤٠٤ والحيوان ٤/١٤ و٦/١٥٠.

٦ - انظر سورة الأعراف ٧/١٣٣.

٧ - انظر ديوان أوس بن حجر ٩٥.

٨ - انظر ديوان الأعشى ٩٧ وشعر أبي زبيد الطائي ٥٧٩.

٩ - انظر سورة القمر ٥٤/٧ وديوان أوس بن حجر ٣٣ وديوان لقيط بن يعمر ٣٦ و٣٩.

١٠ - ديوان الأفوه الأودي ١٦، وانظر الحيوان ٥/٥٦٩.

١١ - في الديوان (درع، وبرس) وأثبتُّ رواية الجاحظ، انظر الحيوان ٥/٥٦٩.

١٢ - انظر شعر عمرو بن معد يكرب ٩٢.

١٣ - ديوان قيس بن الخطيم ٨٢.

obeikandi.com

مُـضَاعَفَةً يَغْـشَى الأنامـلَ فَـضْلُها كـأَنَّ قَتَيْرَيهـا عُيُـوْنُ الجَنَـادبِ[1]

ويبدو أن هناك صلة ما بين أسلحة الجاهليين والجراد، لأنه ما اقتصر الأمر في التشبيه على الدروع وإنما انسحب إلى النبال[2] التي تشبه الجراد وقد قلبته الريح كما يقول المُفَضّل النكري[3]:

كـــأَنَّ النَّبْـــلَ بيـــنَهمُ جَـــرَادٌ تُكَفِّيـــهِ شـــآمِيَةٌ خَرِيـــقُ[4]

فالكثرة وجه للصورة ولكن الوجه المراد هو السرعة، ولعل في هاتين الصفتين وصفة الضمور ما يجعل المشاهد أكثر توقفاً عند الخيل والجراد. فالفَرَس الجرداء مثل الهراوة[5]، وكما تسمت المرأة بجرادة[6] تسمت الفرس بها[7]. وجماعة الخيل حين تنقَضُّ إلى ساحات المعارك لا يشبهها إلا الجراد[8]، ولها يطيب المرعى[9] في كثرتها وقوتها، كقول لقيط الإيادي[10]:

أَلا تخـــافُونَ قومـــاً لا أَبَـــا لكُـــمُ أَمْسَوا إليكمْ كأَمْثَال الدَّبَا سُرُعَا

فالجراد المبثوث لا شبيه له إلاّ جماعات الخيل[11]، أما إذا أردت السرعة فحسب كانت الخيفانة أكثر من غيرها تلبية لهذه الصفة[12]، كقول امرئ القيس[13]:

---

١ - مُضَاعفة: تنسج الدرع حَلْقتين حَلْقتين. والقَتِيْرُ: رؤوس المسامير لحَلْقة الدروع.

٢ - انظر ديوان الأعشى ٦١.

٣ - الأصمعيات ٢٠١ ق٦٩ وانظر الحيوان ٥/٥٦٤.

٤ - الشآمية: الريح التي تهب من الشآم. والخريق: البادرة الشديدة الهبوب.

٥ - انظر شرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢١.

٦ - انظر اللسان (جرد) وديوان عدي بن زيد ٣٤.

٧ - انظر صحيح البخاري ٤/٣٤.

٨ - انظر ديوان امرئ القيس ١٢١ والأعشى ٢١١ ودريد بن الصمة ٤٧ وديوان الهذليين ١/٢٢٠.

٩ - انظر ديوان أوس بن حجر ٧٩ و١٣٦.

١٠ - ديوان لقيط بن يعمر ٣٩ وهو في مختارات شعراء العرب ٧.

١١ - انظر ديوان امرئ القيس ١٩٣ وبشر بن أبي خازم ٧٤ وطفيل الغنوي ٣٦ و ٥٩.

١٢ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٦١ وقيس بن الخطيم ٢١٤ والأعشى ١٧٥ وديوان الهذليين ١/٣٥٣.

١٣ - ديوان امرئ القيس ١٦٣.

obeikandl.com

وأَركـــبُ في الـــرَّوْع خَيْفانَـــةً كَـسَا وجْهَهَـا سـعَفٌ مُنتَـشِرْ[1]

وإذا كانت الصنعة الفنية قد تركزت فيما تقدم من معان فإننا لا نعْدم صوراً أخرى لمشهد الجراد يحمل جملة من الدلائل الفكرية المسخرة للمشبه كما ورد سابقاً. فالنَّمْنَمات التي تعلو شفرة السيف لا يشبهها إلا أثر الجراد على الأرض[2]، وفقاقيع الخمر في الكأس أشبه بحَدَق الجراد[3]، وصغار الإبل عند عنترة كالجراد وكبارها كالضفادع[4].

وبهذا كله كان الجراد واحداً من الحشرات التي دخلت في الشعر حكاية لصفة من صفاته الحسية فوق ما له من تأثير في حياة العرب وأفكارهم. فكثير منهم أكل الجراد[5] وتيمن به حين صُنعت التمائم على هيئته[6]، ومنهم من تشاءم به[7].

وأياً كان شأن الجراد فلم يحظ بمشاهد مطولة ومتكاملة كما وقع في مشهد الذباب والنحل، وإنما بقي في معرض التشبيه الحسي والمجازي، ولعل هذا يقود إلى الحديث عن مشهد الذباب.

٣- مشهد الذباب

الذُّبَاب كالجراد من الحشرات التي تطير وليست بطير، وهو نوع معروف أسود اللون يكون في البيوت ويسقط في الإناء والطعام، واحدته ذُبَابة وذِبَّانَة، ويجمع أيضاً على ذِبَّان[8].

---

١ - الروع: الفزع. "كسا وجهها سَعَفٌ منتشر" أراد النَّاصية. والمنتشر: المتفرِّق.

٢ - ديوان أوس بن حجر ٩٥.

٣ - انظر الحيوان ٥/٥٦١.

٤ - انظر مثلاً: شرح القصائد العشر ٢٧٢.

٥ - انظر الحيوان ٤/٦ و٤٣- ٤٤ و٥/٣٥٦ و٥٦٥ و٥٦٦.

٦ - انظر مثلاً: ديوان قيس بن الخطيم ١١٠.

٧ - انظر البيان والتبيين ٣/٣٠٤- ٣٠٥ والحيوان ٣/٤٤٧ وعيون الأخبار ٢/١٤٦ والمعاني الكبير ١/٢٦٧، والحيوان في الشعر الجاهلي ٢٣٦.

٨ - انظر اللسان (ذبب) وانظر الحيوان ٣/٣٩٠ و٤٠٠ والحيوان في الأدب العربي (شكر) ١/١٣٩.

obeikandi.com

ويطلق الذباب على النَّحْل[1] والزَّنَابير وغيره[2]، ولهذا يصعب تحديد نوعه في الشعر إلا ما قام الاستدلال عليه.

فمن الذباب الأصفر ويقع على الدَّوَاب[3]، والأحمر ويعرض له الشعراء في صفة النوق[4].

ومشهد الذباب يتناول ذلك كله ويجعل من اللون والصوت والحركة والتصرف الذي طبع عليه الذباب ملاذه إلى الاستدلال على الصفات المعنوية. ومهما يكن من أنواع الذباب وأمره فقد ظل حقيراً وضعيفاً، ومن هنا ضربه الله مثلاً في عجز البشر عن النيل منه، فلم يقدروا عليه[5].

وعلى الرغم من ذلك فهو جريء وجسور لا يهاب[6]، ولجوج فلا أوغل في التطفل منه[7]، لا ينيم ولا ينام[8]، يرافق الثور ويلسعه، ولهذا شبهت الكلاب به[9]. ويروم مُؤَق الإنسان لا يبتعد عنه، ويقع على أنف الملك الجبار والأسد فيُذَاد ولا يني يرجع[10]. ولهذا ضُرب مثلاً للشر[11]، واستخدم في معرض الهجاء[12]، كما فعل الحارث بن ظالم حين وصف أعداء قريش بالذباب قائلاً[13]:

---

١ - انظر اللسان (ذبب) وانظر الحيوان ٣/٣٠٥ و٣١٤ و٣٩٢ و٦/٩١.

٢ - انظر الحيوان ٣/٣٠٥ و٣١٤ و٣٢٣ و٣٤٧ و٣٩٢ و٤/٤٥ و٥/٤١٣.

٣ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٥٧ والأصمعيات ١٥٩ و١٨٩ وانظر الحيوان ٣/٣٥٣ و٣٩١ و٧/٦٤ والمعاني الكبير ٢/٦٠٣- ٦٠٥.

٤ - انظر مثلاً: شعر زهير بن أبي سلمى ٢٠٨ وديوان الهذليين ٢/١١٣ والحيوان ٣/٣٠٠ و٣٩٠.

٥ - انظر سورة الحج ٢٢/١٠٢ والحيوان ٣/٣٨٣ و٤٠٣ و٤/٣٧ و٣٩، وذلك دليل على قدرة الله، فالإنسان يقود الجمل ولا يقدر على بعوضة، كما يوضح أن تذليل الحيوان للإنسان بأمر من الله.

٦ - انظر ثمار القلوب ٥٠٠ ومجمع الأمثال ١/١٨١ والحيوان ٣/٢٣٢ و٣٤٣ و٣٤٦.

٧ - انظر الحيوان ٣/٣٤٠ وثمار القلوب ٥٠١ ومجمع الأمثال ٢/٣٨١.

٨ - انظر ديوان أوس بن حجر ١١٥.

٩ - انظر ديوان امرئ القيس ١٦٢ وأوس بن حجر ٤٣.

١٠ - انظر الحيوان ٣/٣٠٥ و٣٢٠ و٣٣٢ و٤٠٣ و٤/٣٧ و٣٩.

١١ - انظر ديوان أمية بن أبي الصلت ٣٤٢ والحيوان ٣/٣١٦.

١٢ - انظر الحيوان ٣/٣٩٨ والأغاني ٦/٣٥١ و١٢/١٠.

١٣ - المفضليات ٣٠٦ ق٨٩ وشرح المفضليات ٣/١٠٩٨.

openkanal.com

فلَــوْ أَنِّــي أشــاءُ لكُنْــتُ مــنهمْ ومــا سَــيَّرْتُ أَتْبَــعُ الــسَّحَابَا

ولاَ قِظْــتُ الــشَّرَبَّةَ كُــلَّ يــومٍ أُعَــدِّي عــن مِيــاهِهمُ الــذُّبَابَا[1]

فالحارث يدفع الأذى عن قريش ويناضل من يتعرض لهم. ومهما يكن الذباب مكروهاً فإنه دليل خصب[2]، يطير فوق الماء كالزخارف[3]، ويترنم في الصحراء مستبشراً بالمطر[4]، ومن أمثلة ذلك قول المتلمس[5]:

هَلُــمَّ إِلَيْهَــا قَــدْ أُثِيْــرَتْ زُرُوعُهــا وعَــادَتْ عَلَيْهَــا المَنْجَنُــونُ تَكَــدَّسُ[6]

وذَاكَ أَوَانُ العِــرْضِ حَــيَّ ذُبَابُــهُ زَنَــــابِيْرُهُ والأَزْرَقُ المُــــتَلَمِّسُ[7]

وينفذ المشهد السابق إلى التقليد الفني الأشهر في ذكر الذباب، ويتوقف عند غناء الذباب وفرحته[8]، فيشتد نشاطه حتى تتعالى أصواته كأنها تغريد حمام شجي على الغُصُون[9]، أو أهازيج تتناهى إلى الآذان من بين الشجر[10]، أو ترنم سكران إذا غنى[11].

وبذا يكون مشهد الذباب موضحاً لإدراك الشاعر المبدع لروح الحياة في عالم يزخر بالحركة ويضج بالخبرة الدقيقة ولا سيما إذا قدم الربيع. وعلى الرغم من

---

١ - الشربة: موضع. قظت فيه: أقمت فيه. وأعدي: أصرف.

٢ - انظر رسالة الصاهل والشاحج ٣٤٤- ٣٤٥.

٣ - انظر ديوان أوس بن حجر ٦٩.

٤ - انظر ديوان الهذليين ١١٣/٢ والمعاني الكبير ٦٠٤/٢.

٥ - ديوان المتلمس ١٢٢- ١٢٣ وانظر الحيوان ١٩١/٣ والمعاني الكبير ٦٠٤/٢.

٦ - المنجنون: الدولاب التي يُسْتَقى عليها. والتكدس: السرعة في المشي. وعادت: مرت.

٧ - العرض: واد من اليمامة. وحيَّ: أراد من الحياة، أي عاش الذباب بالخصب فيه. والزنابير: جعله من الذباب ويكون من النحل والفراش أيضاً. والمتلمس: االطالب. والأزرق: الذباب الضخم وهو أخضر يكون في الرياض.

٨ - انظر الحيوان ٣١٠/٣ و٣١٥ و٣٩٠.

٩ - انظر المفضليات ٢٩١ ق٧٦ والحيوان ٣٧٧/٣ وخزانة الأدب ٤٣١/٤.

١٠ - انظر ديوان الشماخ ٧٤ والحيوان ٣٨٩/٣.

١١ - انظر شعر زهير بن أبي سلمى ٢٣٩.

obeikandi.com

ذلك يظل مشهد الذباب في الشعر الجاهلي قليل الذكر، وإن توقفت أبيات عدة عند تلك الصفات المعبرة عن فهم أسرار الحياة. وهنا يتقدم عنترة من دون الجاهليين ليظهر تفرده في هذا الباب، ومن ثم ابن مقبل في صدر الإسلام. وإن كان هذا مقلداً للسابق إلا أن الحديث عن الذباب ـ عنده ـ يتخذ اتجاهاً جديداً. ولعل الذباب في شعر عنترة يمثل الارتباط الفاعل بين السماء والأرض حين انتشت الأرض بالمطر، وانطلق الذباب يردد أناشيده في روضة غناء. فمشهد المطر في معلقة عنترة سبق مشهد الذباب، وذلك يتوافق مع امرئ القيس حين تحدث عن فرسه[1]، بيد أن الصورة عند عنترة من جنس مغاير للمألوف. فالمطر خير السماء للأرض، ولكن شاعرنا يتحدث عن الأثر الذي يتركه في نفوس المخلوقات. فمشهد الذباب عند عنترة مَثَّل جزءاً من السياق الفني للقصيدة ذاتها وقد اختزن تلك المعاني، وامتلأ عذوبة ورنيناً على قِصَره.

وحين تقرؤه فإنك تشعر حقاً أنك تعيش في فصل الربيع، من خلال تركيز الشاعر لمعانيه المنقولة بدقة وواقعية دون أن يشعرك لحظة واحدة بالتكلف والزخرف، أو يبعث في نفسك السأم من أوغل خلق الله تطفلاً، بل إنه يملأ النفس بالمتعة الحسية، وهي تنقلك من عالم الطبيعة إلى عرض شكل من الحياة لا ينتهي إلا بانتهائها. وهو شكل لا يقل تدفقاً وحيوية عما يوجد في الطبيعة نفسها، لأنه يستبقي الأثر النفسي لدى المرء من خلال ما يحفل به توتر الحياة الذاتية التي يعانيها عنترة. فالضغوط الاجتماعية والنفسيّة تذكره بسواد لونه وضآلة نَسبه من جهة أمه زبيبة، فيعيش ممزقاً بين الانتباذ والازدراء حتى صار السواد رمزاً للذل والعبودية وبين التطلع إلى الحرية في رقة من الشعور المُفْعم باللطافة والحب لأهله وذويه.

ومن هنا أراد لهذا السواد أن يبعث الفرح والنشاط والأمل في حياته، فأتى في القصيدة ذاتها على ذكر الفرس الأدهم والناقة السوداء[2] والذباب. وكل صورة

---

١ - راجع ما تقدم ١٩٢- ١٩٣.

٢ - راجع ما تقدم ١٦١- ١٦٣.

obeikandl.com

تذكّر باللون وتشعر بأن صاحبها يريد الانطلاق إلى رحاب الحرية والانفلات من العبودية، لأن اللون لا يقف عائقاً أمام مناقبه الجمة.

ولهذا كله استخرج ما في نفسه وحياته من آيات البراعة الممزوجة بالألم الممض حتى أصبح مشهد الذباب لديه من التشبيهات[1] العقم.

وارتشف عنترة العبسي ذلك كله دون أن يخرج عن الصورة البشرية البدوية، فالذباب الذي يحك ذراعه بذراعه ليس إلا رجلاً ينكبُّ لقدح النار. فالبدوي يحاول إشعال النَّار في الشتاء مرات ومرات دون أن يحظى بحاجته إلا بعد لأي. والتشخيص يقوم على إعطاء صورة الذباب أكثر من شكل بشري كالترنم والغناء الذي يتعالى من السكران، ويمتزج بمجريات الحياة، فتبرز القدرة الفنية لديه رائعة وفطرية لا تكلف فيها. فمشهد الذباب عند عنترة شكل من عالم اجتماعي إنساني، وصورة من الكلمات المعبرة فيما سهل منها وأُفْعم بلطافة الحس ورقة الشعور، قدمه بعد حديث عن الروضة فقال[2]:

فتَرى الذبابَ بها يُغنّي وحدَهُ هَزجاً كفعلِ الشَّارِب المُتَرَنِّمِ

غَرِداً يَسُنُّ ذِراعَهُ بذراعِهِ فِعْلَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأَجْذَمِ

فالتكامل بين الصورة الفنية والطبيعة يأخذ شكل النقل الواقعي، والاتساق الداخلي. فمشهد الروضة التي كثر فيها الذباب دلالة على الحياة، وصوت الذباب صورة من الفرحة الغامرة بالنعمة، يصدح في جنباتها، ويتجدد الأمل في نفس عنترة مع كل ربيع.

ولا يقل ابن مقبل إبداعاً عن عنترة، فنشاط الذباب في مشاهده كمرح الأفراس. فحين تخلد ناقته إلى الراحة كان الذباب مُوَكَّلاً بنقيض ذلك، على الرغم من أنها رقدت في روضة غناء بعيدة الوطء ساعة الضحى. وتتعانق الرغبة في طلب قسط من الراحة بين الناقة وابن مقبل وهيهات أن يحصلا عليه فكل منهما

---

١ - انظر الحيوان ٣/٣١١.

٢ - ديوان عنترة بن شداد ١٩٧- ١٩٨.

obeikandl.com

أرق، ولا يدعهما الذباب يهنآن[1]:

في عَـازبٍ رَغْـدٍ صَـدَحَ الـذُّبابُ بـهِ رَأْدَ النَّهَارِ كصَدْحِ الفَحْل في الحُصُنِ

تَنَـــامُ طَـــوْرَاً وأَحْيَانـــاً يُؤَرِّقُهَـــا صَوْتُ الـذُبَابِ برَشْحِ النَّجْدةِ الكَتَنِ[2]

فابن مقبل يتجه إلى مشهد الذباب بصورة حسية[3] صرف. ومن هنا يبقى دون ما جاء به عنترة، وإن أصابه الأرق.

وبعد الذي تقدم لن يكون في مشهد الذباب ما يحكى ما يجعل مشهد النَّحْل يتقدم بين يدي البحث.

٣- مشهد النَّحْل

مشهد النحل يدل على معرفة غالبية الجاهليين بهذا النوع من الحشرات المفيدة، واشتهار بعضهم باقتناء النحل وتربيته وتدبر أحواله واشْتِيَار عَسَله. ومما يقوي هذه الأعراف ما ورد من صور شعرية في القصيدة الجاهلية. وبرز من الشعراء ساعدة بن جُؤَيَّة، والمُسَيَّب بن علس وأبو ذؤيب الهذلي والنابغة الجَعْدي، فهؤلاء تناولوا جملة من الصور الحسية والمعنوية للنحل وذكروا عَسَله، على حين عرض آخرون غيرهم لبعض صوره في تشبيه من التشابيه.

ومن هنا لا بد من تعريف عام بالنحل وعسله ثم الوقوف عند سمات مشهد النحل في القصيدة الجاهلية. فالنحل يتدبر شؤون حياته فيقيمها على نظام دقيق أشبه بالنظام الاجتماعي الرئاسي[4]، ويصنع بيوته بعناية فائقة، فيحرص على أن تكون في المعاقل وذرا الجبال والأشجار، ويتخذ من النباتات والشجر طعاماً له[5]، ويدَّخر عَسَله قوتاً إذا شَحَّ طعامه[6]، كما أنه يأكل الذباب، ويأكله الزنبور[7].

---

١ - ديوان ابن مقبل ٣٠٩.

٢ - الكتن: المتراكب بعضه فوق بعض.

٣ - انظر سمط اللآي ٢/٦٨٠، فابن مقبل شاعر مخضرم.

٤ - انظر الحيوان ٥/٤١٧ و٤١٩ و٥١٤- ٥١٧ و٦/١٠.

٥ - انظر سورة النحل ١٦/٦٨ والحيوان ٤/٢٩٦.

٦ - انظر الحيوان ٤/٣٤ و٥/٣٦٥ و٦/١٠.

٧ - انظر الحيوان ٦/٣١٣.

obeikandl.com

فالنحل ذُباب العسل يطير وليس بطير، يطلق على الذكر والأنثى، واحدته نَحْلَه[1] وتجمع على نَحلات، والذكور أصغر جِرْماً من الإناث، ويقال لها اليعاسيب ومفردها اليَعْسُوب[2]، وهو أمير النحل تطيعه طاعة عمياء. وعُرف للنحل غير ما اسم[3] كما أطلق على الجماعة منها عدد آخر من الأسماء كالأَوْب والخَشْرم[4]... ويقال للفرخ طَرْد[5]. والعسل أشهر أسماء ما تخرجه النحل من بطونها وفيه شفاء للناس، ويطلق عليه ضَرَب وجَنًى وأَرْيٌ وَمِزْج[6].

ومما يقوي ذلك أن تأبط شراً الصعلوك حدثنا عن مغامرة له في بلاد هذيل، حاول فيها الوصول إلى غار في طُنُف من الجبل ليشتار الجَنَى، ولكن الهذليين الذين يطلبونه كانوا له بالمرصاد. وتسوروا حوله يريدون الإجهاز عليه، فلما رأى أن نجاته تكمن في زق العسل ربطه بنفسه وأسال العسل من فم الغار ثم ألصق الزِّقَّ به وتزلَّق إلى أسفل الجبل ونجا[7].

ولعل ذلك كله جعل النحل موضع عناية عدد من الجاهليين ولا سيما أولئك الذين وقع تحت أيديهم وبصرهم كالهذليين[8] وبعض الصعاليك، إذ اشتهروا باجتناء العسل لسد الرمق. وربما يعود إلى وجود النحل في مناطقهم وفي مكة، وبلاد هذيل مشهورة بوفرة النَّبات[9].

---

١ - اللسان (نحل) والحيوان ٣/٣٠٥ و٣١٤ و٣٩٢ و٦/٩١ وحياة الحيوان الكبرى ٢/٣٤٠- ٣٤١.

٢ - اللسان (عسب) والحيوان ١/١٩ و٣٠ و٣/٣٢٨- ٢٣٩ و٥/٤١٧- ٢٤٠ وحياة الحيوان الكبرى ٢/٣٤١ و٤١١ وانظر مثلاً: ديوان الهذليين ١/١٤٢.

٣ - انظر مثلاً: اللسان (دبر) و(مخر) و(حجل).

٤ - انظر مثلاً: اللسان (أوب) و(ثول) و(خشرم).

٥ - انظر مثلاً: اللسان (طرد) و(رصع).

٦ - انظر مثلاً: اللسان (ضرب) و(مزج) و(ضحك) و(أري، وجني) والحيوان ٥/٤٢٩ و٦/١٠.

٧ - انظر رسالة الصاهل والشاحج ١٥٣- ١٥٤.

٨ - انظر معجم ما استعجم ٢/٤٢٨- ٤٢٩. والحيوان في الشعر الجاهلي ١٠٥ وديوان الشنفرى ٥٩.

٩ - انظر ديوان الهذليين ١/٢٠٧ وشرح أشعار الهذليين ٣/١١٠٨ و١١٣٨- ١١٤١.

obeikandl.com

وقد تناول أكثر من هذلي مشهد وصف النحل ومُشْتار العسل وأدواته وأطال الحديث ذاكراً اللون والصوت والعسل وغير ذلك كساعدة بن جؤية[1]، وأبي ذؤيب الهذلي[2] والمتنخِّل الهذلي[3].

فالصعاليك كالجاهليين خبروا تصرفات النَّحل وهيئته وأدركوا قيمة العسل وما يقدمه من فوائد. وحاز المُسَيَّب قَصَب السبق بينهم حين عمد بمشهد طويل إلى ذكر النحل، فكان أسبق إلى بعض المعاني والصور، ولهذا حذا النابغة الجعدي حذوه واقتفى أثره بأكثر من بيت[4].ويتوقف مشهد المسيب عند أماكن النحل واتخاذها الهضاب مساكن لها وخروجها جماعات تطلب الطعام، ورواحها وقد تزودت بالرحيق. وبدت سود الرؤوس تصدح في أناشيد وهي تجوب الوديان مترنمة في مختلف أوقاتها وأمكنتها، ومن ذلك قوله[5]:

بَكَـرَتْ تَعَـرَّضُ فِي مَرَاتِعِهَـا ... فَـوْقَ الهِـضَابِ بمَعْقَـلِ الـوَبْرِ[6]

وغَـدَتْ لَمَـسْرَحِها وخالَفَهَـا ... مُتَـسَرْبِلٌ أَدَمـاً عَلَـى الـصَّدْرِ

سُـوْدُ الـرُّؤُوْسِ لـصَوْتها زَجَـلٌ ... مَحْفُوفَـةٌ بمَـسارْبٍ خُـضْرِ[7]

فقد تعودنا عند الجاهليين أن نحظى بالبيت والبيتين – عدا الهذليين – ولكننا والمسيب نوفق بالاطلاع على مشهد طريف ذي فن بديع، فهو السابق إلى تشبيه ريق

---

١ - انظر ديوان الهذليين ٨٦/١ و٩٤ و١٤٢.

٢ - انظر ديوان الهذليين ٢٧/٢.

٣ - انظر ديوان تأبط شراً ٢١٥ وانظر فيه ٢٤٩.

٤ - انظر شعر النابغة الجعدي ١٨٨ والشعر والشعراء ١٧٥/١- ١٧٦ واختلطت أبيات للجعدي بأبيات للمسيب بن علس، فإذا هي هي.

٥ - الشعر والشعراء ١٧٥/١- ١٧٦.

٦ - الوَبْر: دُوَيْبَّة على قَدْر السِّنَّوَر من دواب الصحراء حسنة العينين شديدة الحياء، لا ذَنَب لها غبراء أو بيضاء، انظر اللسان (وبر).

٧ - الزجل: الجَلَبة، ورفع الصوت، وانظر الحيوان ٣٠٩/٣.

openkanal.com

المرأة بجنى النَّحل حين تحدّث عن ثَغْر المرأة، وعذوبة مذاقته كطعم العسل[1]، فيقول من القصيدة السابقة نفسها:

وكــأَنَّ طَعْــمَ الزَّنْجَبِيْــلِ بــهِ إِذْ ذُقْتَــــهُ وسُــــلافَةَ الخَمْــــرِ

شَــرِقاً بمــاءِ الــذَّوْبِ أَسْــلَمَهُ لِلْمبتَغِيْــــهِ مَعَاقــــلُ الــــدَّبْرِ[2]

كأن ريق فمها عسل مشتار، والعسل شراب لذيذ وفيه شفاء للناس[3]. وكان شراب النُّعمان بن المنذر يمزجه بالعسل كما يقول لبيد بن ربيعة في رثائه له[4]:

بأَشْهَبَ مِنْ أَبْكَارِ مُزْنِ سَحَابَةٍ وأَرْيِ دَبُورٍ شَارَهُ النَّحلَ عاسِلُ[5]

فالعسل يكون صلباً ويرقق بالماء الخالص[6]، وإذا استسيغ الشتم واللعن صار كالعسل المخلوط بماء السحاب[7]. وكان أوس بن حجر قد دفع ثلاثة أبرادٍ جيادٍ وزقاً من عسل ثمناً لقوس، وهو يعلم قيمة ما يؤديه[8]. ولنا من قولة الجاحظ ما يعين على ذلك "فهذه النحلة، وإن كانت ذبابة، فانظر قبل كل شيء في ضُرُوب انتفاع ضُرُوب الناس فيها، فإنك تجدها أكبر من الجبل الشامخ"[9].

---

١ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٠٤ وعبيد بن الأبرص ٤٠ وشعر أبي دواد ٣٠٦ وشعر النابغة الجعدي ١٨٨ وشرح أشعار الهذليين ١١٠٧/٣ و١١٣٨.

٢ - شَرْقاً: مختلطاً، وهو حال منصوب. والدَّبْر: (هنا) النحل ويطلق على الزنابير.

٣ - انظر سورة النَّحل ٦٩/١٦ وتفسير الطبري ٩٤/١٤ وتفسير غرائب القرآن ٨٨/١٤ والجامع الصغير ٥٥٣٤ والحيوان ٤٢٩/٥ و١٠/٦ وحياة الحيوان الكبرى ٣٤٢/٢ و٣٤٤.

٤ - شرح ديوان لبيد ٢٥٨.

٥ - الأَشْهَب: الأبيض وهو الماء الممزوج بالخمرة. والمُزْن: واحدته مُزْنَة، وهو السحاب الأبيض. والأَرْي: العَسَل. والدَّبُور: النحل. وشارَه: جناه.

٦ - انظر شرح أشعار الهذليين ١١١٢/٣ و١١٣٨.

٧ - انظر ديوان طرفة بن العبد ١٤٣ (الجندي).

٨ - انظر ديوان أوس بن حجر ٨٩٨.

٩ - الحيوان ١٠/٦.

obeikandi.com

ويجد الباحث صوراً أخرى لمشهد النَّحل وإن اقتصر على الأبيات المفردة، ولكنها كانت تدفع بالقصيدة مثلما تندفع الدَّبْر كالريح[1] دفعة واحدة. ولا شبيه لها في هذه الصفة إلا قوم يندفعون وراء تأبط شراً[2]، أو كلاب الفتى البكري[3]، أو النّبال المتتابعة والمسرعة إلى أهدافها[4]، وهي تقع فيها كلسْع النَّحل[5]، وحفيفها حين تنطلق من الأقواس كأصوات ثلة راجعة[6].

ويبقى الجهد دون ما يحصله مشهد النَّحل وما في النحلة من عجيب الخَلْق والتركيب والتَّدَبُّر، وهو إن لم يزد عما يوجد في خَلْق النَّمْلة وأجناسها فإنه لا يقل. فمشهد النَّمْل يحكي دقائق عن هذا الحيوان الذي يطير بعضه وليس بطير[7]، وتأكله العصافير والضباع[8].

٤ - مشهد النمل

مشهد النمل لم يملك حظاً كحظ مشهد النحل في القصيدة الجاهلية، ولكنه يقع فيها ليدل على عظم صنيع الله في خَلْقه. فالنمل يبني مساكنه وفق نظام معماري رائع. ونرى في حياته ضَرْباً من التدبر والحركة والنشاط على صغر حجمه حتى صار مثلاً لكل شيء دقيق الحس والصنعة، ولا بد من بيان ذلك بعد تعريف بالنمل. فالنَّمْل يقع على الذَّكر والأنثى، واحدته نَمْلة وجمعه نِمَال. وأُخذ الاسمُ من التَنَمُّل، وهو الحركة ودخول بعضه في بعض. أما أصناف النَّمْل فثلاثة: النَّمل وفَازِر وعُقَيْفَان، وتسكن البراري والخَرابات[9]. والفازر ما كان فيه حمرة

---

١ - انظر ديوان الأفوه الأودي ١٨.

٢ - انظر ديوان تأبط شراً ٢١٥.

٣ - انظر ديوان الأعشى ٣٣١.

٤ - انظر ديوان الأعشى ٦١.

٥ - انظر المفضليات ١٥٢ وشرح أشعار الهذليين ١١٨٣/٣ وشعراء النصرانية ٦٣٢.

٦ - انظر ديوان الشنفرى (الطرائف) ٣٨.

٧ - انظر الحيوان ٣٠/١.

٨ - انظر الحيوان ٣٢٧/٢ وم ٣٤/٤ و٣٦ و٢٠٧/٥ و٦٩/٧ و١٤٦ وحياة الحيوان الكبرى ٣٦٦/٢ و٣٧١.

٩ - اللسان والتاج (نمل) وانظر الحيوان ٣٥/٤ و٢٢/٦ وحياة الحيوان الكبرى ٣٦٦/٢.

obeikandi.com

وهو جَدُّ الشُّقْر من النمل ويكون في التمر، والعُقَيفان طويل القوائم وهو جَدُّ السُّود منها، وقيل غيرُ هذا[1]. ويقال لصغار النَّمل الذَّرُّ، واحدته ذَرَّة ليس لها وزن، وعضتها تقتل[2]. وهناك أسماء كثيرة للنَّمل يأخذها من صفاته وألوانه مثل (الجَثْل، والجَفْل، والدَّعْبُوب والسَّمَاسم)[3].

وبهذا كله نتوجه إلى مشهد النمل الذي قيل فيه: ليس هناك حيوان أكثر دأباً لكسب الرزق وادخاره من النَّمل[4]، وضُرب به المثل: أجمع من نملة[5]. وهي تتخذ لذلك قُرىً منظمة[6]. ولعل في الشكل الخارجي لبيت النمل ما جعل الشعراء يتخذونه مادة للتشبيه، كقول بشر بن أبي خازم يتحدث عن الوَبَر الذي مُعِط من الناقة وتلبد فظهر كجث النمل[7]:

لَهَا قَرَدٌ كجُثِّ النَّمْلِ جَعْدٌ تَغَصُّ بِهِ العَرَاقِي والقُدُوحُ[8]

وحين يخرج النَّمل من مساكنه فإنه يركب بعضه بعضاً كأنه متراكب، لا شبيه له إلا الفُرسان المتعاظلين كقول الحادرة الذبياني[9]:

أَخَذُوا قِسِيَّهُمُ بِأَيْمُنِهِمْ يَتَعَظَّلُونَ تَعَظُّلَ النَّمْلِ[10]

---

١ - انظر اللسان والتاج (فزر وعقف ونمل) والحيوان ١٤/٤.

٢ - انظر اللسان والتاج (ذر) وحياة الحيوان الكبرى ٣٦٦/٢ والحيوان ٥/٤ و١٧ و٣٩ و٢٣ و٢٥.

٣ - انظر اللسان والتاج (دعب) (جثل، جفل) (سمسم) (مزن) وحياة الحيوان الكبرى ٢٨/٢.

٤ - انظر الحيوان ٣٤/٤ والتمثيل والمحاضرة ٣٦٧ ونهج البلاغة (ابن أبي الحديد) ٥٥/١٣.

٥ - انظر جمهرة الأمثال ٣٣٤/١ والحيوان ٣٦٥/٤.

٦ - انظر سورة النمل ١٨/٢٧ والحيوان ١٢/٤ و٢١ و١٥٠ و٢٩٦.

٧ - ديوان بشر بن أبي خازم ٥٠.

٨ - جُثُّ النمل: بيته. والقَرَد: تجمُّعُ الوَبَر وتلبده. والعَرَاقي: خَشَب الرحل. والقُدُوح: عِيُدان الرحل، لا واحد لها. وتغص به: تعض به

٩ - ديوان الحادرة الذبياني ١٠٣- ١٠٤.

١٠ - تعظلوا عليه: تراكبوا عليه ليضربوه، وقيل: اجتمعوا.

obeikandl.com

وتَـرَى الـذَّمِيْمَ عَلـى مَرَاسِـنِهِمْ غِـبَّ العَجَـاجِ كمَـازِنِ الجَثْـلِ[1]

ويوضح البيت الثاني صورة بيض النمل الذي يشبهه بثر ظهر في أنوف أولئك الفرسان. والنمل الذي يدب صاعداً إلى ربوة لا يشبهه إلا اهتزاز السيف ولمعانه في اليد، كقول أوس بن حجر[2]:

كـأَنَّ مَـدَبَّ النَّمْـلِ يَتَّبِـعُ الرُّبَـا ومَـدْرَجَ ذَرٍّ خَـافَ بَـرْداً فأَسْـهَلاَ

عَلـى صَفْحَتَيْهِ مِـنْ مُتُونُ جَلائِـهِ كَفَى بالّذِي أُبْلِي وأَنْعَتُ مُنْصَلاَ[3]

فالنمل يفر من الندى إلى التلال، وحين يشتد البرد عليه هناك يأتي السهل فيستبين أثره في الأرض فيشبه ما تبقى على السيف من أثر صقله.

فالشاعر أدرك قيمة الصورة في دقة أجزائها، فاختار أصغر الحيوانات ومن ثم أصغر النمل وهو الذَّرّ، وبذا أشعرنا بحدة السيف ورقته كما فعل غيره من الشعراء[4] الذين تفننوا في عرض صورة السيف. فالعقلية البدوية وحدها تمازج بين أجزاء المشهد مستقية من معالم الطبيعة ما يقوي التشكيل الإبداعي لجث النمل وصغاره وحركته بين السهل والجبل. ويبقى مشهد الذر أكثر من غيره جمعاً للإبداع في مشهد النَّمل، وهو يملأ النفس بصورة المرأة المُنعمة، فَمرُّ الذر فوق جسمها يؤثر فيه، وقد يجرحه[5] عبوره من فوق ثوبها لرقة بشرتها فضلاً عن إتقان النسيج ونعومته. ويضيف امرؤ القيس إلى هذا أن تلك المرأة البضة الجميلة قصرت نظرها على زوجها فلا تنظر إلى غيره تعففاً وحسن صحبة، فقال[6]:

---

١ - الذميم: بثر يظهر في الوجه من حر الشمس أو سفع العجاج في الحرب. والمازن: بَيْض النمل. والجَثْل: الكبير من النمل. والمراسن: الأنُوف.

٢ - ديوان أوس بن حجر ٨٥.

٣ - أُبلي: أحدثك عنه. والمُنْصَل: السيف.

٤ - انظر ديوان امرئ القيس ٢٣٧ وديوان الهذليين ٣/٣٠ والحيوان ٤/٣٠ والشعر والشعراء ٢٦ وعيون الأخبار ٢/١٨٧ ومعاهد التنصيص ١/٤٨.

٥ - انظر شرح ديوان حسان بن ثابت ٤٣٣.

٦ - ديوان امرئ القيس ٦٨.

obeikandl.com

مِنَ القَاصِراتِ الطَّرْفِ لودَبَّ مُحْوِلٌ مِنَ الذَّرِّ فَوْقَ الإِتْبِ مِنْها لأَثَّرَا[1]

وتبع الشعراء امرأ القيس في هذا المعنى[2]، بينما تنبه آخرون على إهلاك الأمم بالذر[3]، فكان من جملة ما أرسله الله لتعذيبها[4].

ومن هنا نسجت القصص المختلفة حول النمل سواء مع البشر أم الحيوان[5]. وبهذا روت الأخبار أحاديث طريفة حول النملة التي تكنى أم توبة وأم مازن بينما كني الذكر بأبي مشغول[6].

هكذا غني مشهد النمل بجملة من المعاني والمعطيات الفنية والنفسية ولا سيما تلك التي تحدثت عن ذكر الدقة والجمال.

وإذا كان مشهد النمل والنحل والذباب والجراد أبرز ما وقع في الشعر الجاهلي فليس ذلك محصوراً فيه فهناك أنواع أخرى من الحشرات كانت مضرب المثل في فضول معاني الشعراء. ولهذا لا بد من الإشارة إلى هذه الأنواع في مشاهد زواحف وحشرات أخرى.

٣- مشاهد زواحف وحشرات أخرى

لا تتعدى هذه المشاهد أن تكون جزءاً من بيت أو بيتاً واحداً عدا بضعة منها لا تزيد على أصابع اليد الواحدة ـ جاءت طويلة ومثيرة. وقد يعود ذلك إلى عدم معرفة الجاهليين بشكل جيد كالسمك والحوت والضفادع أو لندرة الصفات التي تثير مخيلة الشعراء كالقنافذ وبعض الحشرات كالأساريع التي تتحول إلى فراش جميل الألوان،

---

١ - القاصرات الطَّرف: يعني المُتَحَبِّبَات إلى أزواجهن. والمُحْوِلُ: الذي أتى عليه حول وكنى به عن الصغير من النمل. والإِتْب: الثوب الرقيق له جيب وليس له كُمَّان.

٢ - انظر مثلاً: شرح ديوان حسان بن ثابت ٤٣٣ وديوان حميد بن ثور ١٧ والحيوان ٤/١٠-١١.

٣ - انظر مثلاً: ديوان أمية بن أبي الصلت ٤٠٤- ٤٠٥.

٤ - انظر الحيوان ٣/٣٠٤ و٤/٧- ١٣ و٣٣ وحياة الحيوان الكبرى ٢/٣٦٧ و٣٧٠.

٥ - انظر الحيوان ٣/٣٠٣ و٣٢٨ و٤/٧-٩ و١٥ و٢٠ و٣٥ و٢٠ و٣٥ و١٥ و٤١٣ و٤١٥ و٦/٥٥٤ و٧/٣٦ و٦٤ و١٠٩ وحياة الحيوان الكبرى ٢/٣٦٧-٣٦٩.

٦ - انظر حياة الحيوان الكبرى ٢/٣٦٦ و ما بعدها .

والبعوض بأنواعه والدعامص المائية والخنافس البرية والقراد والعناكب.

وقد يكون بعض هذه الحيوانات قريباً من البدوي ومساكنه لأنها جزء من معالم طبيعة البادية، بيد أنه لم يعرها انتباهاً، على حين تناقل أخبار غيرها وكأنه لم يعرفها.

ولهذا كله سنتوقف عند عدد آخر من الزواحف وهي تقود إلى مشهد حشرات أخرى. أما السَّمَك[1] وفيه أكثر من أربع مئة نوع فإنه يقع على الذكر والأنثى وواحدته سَمَكة[2]، وأشهر أنواعه الحُوْت ويلقب بذي النُّون[3]. وقد يكون مشهد السمك عزيزاً في القصيدة الجاهلية، ولكنه يدل على أن قلة من العرب أدركوا صفاته ووظفوها لمعانيهم. ولعل مشهد الحوت يثبت خبرة عَبِيْد به، واطلاعه على مهارة غوصه. ولهذا استعاره ليصف به لسانه الذي يغوص في انتقاء شوارد الشعر مما عجز عنه الآخرون، بل إنه أمهر من الحوت في السباحة خلال بحور الشعر. وإذا كان المشهد مثيراً للذهن حين يعتمد على الحركة البارعة والقدرة على رسم الملاسة التي لا يشبهها إلا درع حسنة النسج فإنه يبقى أكثر تعبيراً عن ظاهرة الافتخار بقول الشعر، كما يدل على أن السمك يحيا بالماء[4] ويموت بالهواء. فيقول[5]:

سَلِ الشُّعَراءَ هَلْ سَبحُوا كسَبْحِي ... بُحُورَ الشِّعْرِ أو غَاصُوا مَغاصي

لِسَاني بالنَّثِيْرِ وبالقَوَافِي ... وبالأَسْجَاعِ أَمْهَرُ في الغَيَاصِ[6]

---

١ - اللسان (سمك) وانظر سورة الكهف ٦٣/١٨ والصافات ١٤٢/٣٧

٢ - اللسان (سمك) وانظر الحيوان ٢٣٣/١ و٢٩٥/٣ و١٥/٤ و١٠٢ و١٤٧ و٥٣٠/٥ و١٠٥/٧ وحياة الحيوان الكبرى ٢٨/٢- ٢٩.

٣ - اللسان (نون) والحيوان ٣٧/٤ و٢٠٧/٧ وحياة الحيوان الكبرى ٢٨/٢ و٣٧١ وانظر سورة الأنبياء ٨٧/٢١ وديوان المزرد ٤٢.

٤ - انظر الحيوان ٢٦٤/٣- ٢٦٥ و٣٧٢ و١٠٤/٤.

٥ - ديوان عبيد بن الأبرص ٧٦- ٧٨ و(صادر) ٨٥- ٨٦.

٦ - رواية (صادر)، (القوافي) مكان (النثير) و(الغواص) مكان الغياص، و(الأشعار) مكان (الأسجاع).

مـــنَ الحُـــوتِ الّـــذِي بـــصَفْحَتَيْهِ يُجِيْدُ السَّبْحَ فِي اللُّجَجِ القِمـاصِ[1]

إذا مـــا بـــاصَ لاحَ بـــصَفْحَتَيْهِ وبَـــيَّضَ فِي المَكَـــرِّ وفِي المَحَـــاصِ[2]

تَـــلاوَصَ فِي المَـــداصِ مُلاوِصَـــاتٌ لـــه مَلْـــصَى دَوَاجِـــنَ بـــالمَلاصِ[3]

بَنـــاتُ المَـــاءِ لـــيْسَ لهَـــا حَيَـــاةٌ إذا أَخْـــرَجْتَهُنَّ مِـــنَ المَـــداصِ

إذا قَبَـــضَتْ عَلَيْـــهِ الكَـــفُّ حِيْنـــاً تَنَـــاعَصَ تَحْتَهَـــا أيَّ انْتِعـــاصِ[4]

وَبـــاصَ ولاصَ مِـــنْ مَلَـــصٍ مَـــلاصٍ وحُـــوْتُ البَحْـــرِ أَسْـــوَدُ أو مِـــلاَصِ[5]

كَلَـــوْنِ المَـــاءِ أَسْـــوَدُ ذُو قُـــشُورٍ نُـــسِجْنَ تَلاحُـــمَ الـــسَّرْدِ الـــدِّلاصِ[6]

فهذا المشهد يزخر بالدلائل الكثيرة عن السمك وماهيته، ولكنه يجعل صفة السباحة في غمر البحر ولونه وملاسته مادته الأولى للحديث عما انتواه في قصيدته. فالحديث عن الدلاص[7] أو الدروع ومشابهتها بالحوت جرى عليه بعض الشعراء[8]. وبذلك وفق في الانتقال من الافتخار بلسانه الذرب إلى سلاحه ولا سيما الدروع، فربط مقدمة القصيدة بآخراها. ولعل فقدان الحركة في السمك إذا خرج من الماء لا يشبهه إلا أعداء قوم أوس بن حجر الذين سقطوا تحت ضرباتهم[9]، كما سُمي

---

١ - القماص: رواية (صادر)، وفي الديوان (ت. نصار) المغاص، ولعل الوجه ما أثبته، والقِمْاصُ: الأمواج القلقة التي لا تستقر. واللجج: الماء العظيم المتموج.

٢ - باص: سبق وتقدم. والمَحَاص: المَفَرُّ، ضد المَكَرّ.

٣ - تَلاوَصَ: من لاوَصَ، أي خادع. والمَدَاص: المغاص في الماء. والملاوصات: أراد السمك، وكذلك: ملصى، والملاص: من مَلَصت السمكة أي زلقت وانسلت. والمَلَصُ: الزلق. والدواجن: المؤالفة.

٤ - الانتعاص: التحرك، وتناعص: تحرك.

٥ - لاص: حاد وانحرف. والمِلاص: الحجارة البيض، والبيت فيه إقواء.

٦ - الدِّلاص: الدِّرْع اللينة الملساء ذات النَّسْج المتلاحم.

٧ - انظر مثلاً: ديوان عامر بن الطفيل ١٠٢.

٨ - انظر مثلاً: ديوان المزرد ٤٢.

٩ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٨١.

obeikandl.com

السيف بالنُّون[1].

وبهذا استحضر مشهد السمك جملة من المعطيات الفكرية والفنية.

ويبقى التمساح من أنواع السمك ولو كان شكله على خِلْقة السحالي وأشار إليه شعراء في معرض صورهم[2]. وكذا نعتقد في الدَّعامص، وإن كان منظرها يذكر بالحشرات. فالدُّعْموص دُوَيْبة تكون في مستنقع الماء تغوص فيه[3]، وضَرَبُه الأعشى مثلاً لعلقمة بن عُلاثة هاجياً إياه، فبحره راكد لا يواري أحقر الديدان[4].

ومشهد الدعامص ينقلنا إلى مشهد الضَّفادع. والضّفادع جمع، ويقال للذَّكر ضِفْدع وعُلْجوم والأنثى ضِفْدِعة[5]. فمشهد الضفادع أوفر حظاً في أشعار الإسلاميين منه في أشعار الجاهليين، لكننا ننعم ببضعة مشاهد تدل على قدرةٍ ودقةٍ في اختيار الصفات التي قصد إليها بعض الشعراء[6].

فالخيل تباكر الأعداء وهم غرقى كالضّفادع[7]، والضفادع في مشهد للنابغة الذبياني جزء من التكوين النفسي العام لنفسية بعض القوم[8] ومثله عند طفيل الغنوي.

وعلى الرغم من إبداع الجاهليين في الاعتماد على اقتناص أجزاء من صورهم من هذا النوع من الحيوانات إلا أننا نحظى بمشهد في شعر زهير بن أبي سلمى قل أنه يجاريه فيه شاعر، علماً أن الخنساء جعلت الماء الجاري والضفادع صنوين، فضربتها مثلاً لحزنها على أخيها صخر[9]. وكان زهير قد جعل الضفادع دلالة على

---

١ - انظر سمط اللآلي ٥٨٣/١.

٢ - انظر مثلاً: ديوان أمية بن أبي الصلت ٤٠١.

٣ - انظر اللسان والتاج (دعمص).

٤ - انظر ديوان الأعشى ١٨٧.

٥ - انظر اللسان والتاج (ضفدع) و(علجم).

٦ - انظر الحيوان ٥٣٣/٥ ومحاضرات الأدباء ٦٨٩/٤ وسمط اللآلي ٥٠٠/١- ٥٠١.

٧ - انظر ديوان طفيل الغنوي ١١٦.

٨ - انظر مثلاً: ديوان طفيل الغنوي ١١٦ وديوان النابغة الذبياني ٨٧ وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي ٢٦.

٩ - انظر ديوان الخنساء (صادر) ١٢٨.

openkanal.com

على جريان الماء في جدول صغير تخرج منه واثبة كما تفعل الجواري من النساء والصبيان حين يلعبون فيقول[1]:

يُحيلُ في جَدْوَلٍ تَحْبُو ضَفادِعُهُ حَبْوَ الجَوارِي تَرَى في مائِهِ نُطُقَا

يَخْرُجْنَ مِنْ شَرَباتٍ ماؤُهَا طَحِلٌ عَلى الجُذُوعِ يَخَفْنَ الغَمَّ والغَرَقَا[2]

فدلو الناقة يصب ماءه فينساب نَهْراً صغيراً يروي الزرع. وبهذا مزج ما بين الصورة البدوية وما يطوف في ذاكرته من صورة الحاضرة فأجاد وأبدع، مثلما قوى صورة الأمل في الحياة من خلال الماء والناقة.

أما مشهد القُنْفُذ فنادر الذكر في القصيدة الجاهلية على شهرته في بادية العرب مثل الأفاعي. وهو دويبة على قدر الجُرَذ[3]، ذو شوك يحيط بجسمه يتسلح به ضد الحيات والسحالي، ويقدر عليها ويأكلها[4] مثلما يفعل بالجرذان وأجناسها. ولهذا تحرز العرب من قتله ونُهي عنه[5].

وقيل: إنه لا يظهر إلا بالليل[6]، ويلجأ إلى بيته في النهار، ويكون عادة تحت الرمل اللين[7].

وعلى اختلاف أسماء[8] القنافذ تبعاً لصفاتها تبقى قنافذ بُرْقَة أشهر ما ذكر في هذا الباب[9]. ولكن الأشهر من ذلك أن القنافذ صارت مثلاً للرجل النَّمَّام، مثلما

---

١ - شعر زهير بن ابي سلمى ٦٨- ٦٩.

٢ - يخرجن: يعني الضفادع. والشربة: حُوَيض كهيئة المعلف، ويتخذ عند أصل النخلة لإروائها. والطَّحِل: الأخضر يضرب إلى الغبرة، لكثرة ما يمكث فيه الماء.

٣ - انظر اللسان والتاج (قنفذ) ومحاضرات الأدباء ٦٨٢/٤.

٤ - انظر الحيوان ٢٨/١ و٥٢/٢ و١٦٦/٤ و١٦٩ و٥/٥٣١-٥٣٢ و٥٥/٦ و٣١٣ و٣٧٤ و٣٣/٧ و٢٥٥ ورسالة التربيع والتدوير ٤٨.

٥ - انظر الحيوان ١٦٨/٤ و٢٥٥/٧.

٦ - انظر الحيوان ٤٦٢/٦.

٧ - انظر ديوان أوس بن حجر ١١٨.

٨ - انظر الحيوان ٤٦٤/٤ واللسان (شظم).

٩ - انظر الحيوان ١٣٤/٤ و١٨٨/٦ وتأويل مشكل القرآن ٣٨٨.

obeikandl.com

أصبحت مراكب للجن[1]. ويعدُّ الشاعر الإسلامي عبدة بن الطبيب من أشهر من تحدث عن الساري بالنَّميمة موصياً أولاده اتخاذ الحذر والحيطة منه لأنه يحدج في الليل كالقنفذ[2].

ويبقى مشهد بعض الحشرات أكثر ذكراً في أشعار الجاهليين من القنافذ والأسماك، ولكنها لا تقع إلا في معرض تشبيه خاطف يقتطفه الشعراء لينفذوا من خلاله إلى صفة أرادوها. ولكن هذه المشاهد الضئيلة ما تزال غريبة الوقع على الأسماع ولا سيما حين تعقد المشاكهة بين أصابع الفتاة الناعمة وبين بعض الديدان كالأساريع. فالأساريع دود أحمر أو أبيض رقيق تكون في البقل في الربيع[3]. فالشعراء جعلوا أصابع فتياتهم اللينة البيضاء كأساريع الظبي في الحركة واللون، ولو شئت عقدها لعقدت[4].

والأساريع تنسلخ لتكون فراشة ذات ألوان دائرية جميلة كالجمان المثقب[5]، وهي تتفرق هنا وهناك، وتطير بجناحيها الرقيقين لا يشبهها إلا أحجار بيض تتفرق من مَنْسِم الناقة[6].

فالفراش من أنواع البعوض وإن طار[7]، ويتهافت على النار، ولهذا قيل: أطيش من فراشة، وضُرب مثلاً في الرجال[8]، وتَصيده طيور الليل كالخُفَّاش[9].

---

١ - انظر الحيوان ٤٦/٦ و٢٤٠.

٢ - انظر شعر عبدة بن الطبيب ٤٦ وانظر فيه ٣٧.

٣ - انظر اللسان والتاج (سرع) والحيوان ٢٥٥/٤.

٤ - انظر ديوان امرئ القيس ١٧ والنابغة الذبياني ٩٣.

٥ - انظر شرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٩ وديوان الهذليين ٩٣/٢ والحيوان ٤٠٣/٥.

٦ - انظر ديوان طرفة بن العبد ٦١.

٧ - انظر اللسان (بعض) والحيوان ٣٠/١ و٣٠٥/٣ و٣١٤ ومحاضرات الأدباء ٦٨٧/٤.

٨ - انظر اللسان (فرش) وجمهرة الأمثال ٢٣/٢.

٩ - انظر الحيوان ٢٩٩/٢ و٥٢٧/٣.

obeikandl.com

أما البعوض فهو ضَرْب من الذباب الصغير ومنه الناموس يطير وليس بطير[1] ومنه البق[2]. وعلى حقارة البعوض ضربه الله مثلاً للقوم[3].

فالبَعوض من ذوات الخراطيم[4]، ويستحيل بَرغوثاً[5] مثلما يستحيل البرغوث بعوضاً[6]. وهو يتغذى بدم الحيوان[7] ويقوى سلطانه في الليل عليه[8] وعلى الإنسان سواء.

ومشهد البعوض ينعَدم في أشعار الجاهليين إلا ما كان من ذكرهم للبَق[9] والقُرَاد[10]، على حين نحظى في صدر الإسلام بمشهد مطول نوعاً ما يُذْكَر البعوض فيه[11].

والقُرَاد ضَرْب من البراغيث قذر[12] وجَمْعُه القِرْدان، وهو دويبة بين السواد والحمرة تتعلق بالبعير الصعب فتلوي به[13]، ويسمى القُشْعُوم[14]. وبالقراد ضُرِب المثل في الذل فقيل: أذل من قراد[15].

---

١ - انظر اللسان (بعض) والحيوان ١/٣٠.

٢ - انظر اللسان والتاج (بعض) و(بق).

٣ - انظر سورة البقرة ٢/٢٦.

٤ - انظر الحيوان ٣/٣١٦ و٥/٣٩٨ و٦/٣٧٤ و٧/١٦٩.

٥ - انظر الحيوان ٤/٢٢٥.

٦ - انظر الحيوان ٣/٥٠٣ و٤/٢٢٥.

٧ - انظر الحيوان ٣/٥٢٨

٨ - انظر الحيوان ٣/٣٢٠ و٥٢٧ و٥/٤٠٢ وعليه فُسر بيت للأعشى، الديوان ١٢١ ب٢١.

٩ - انظر ديوان أوس بن حجر ٤١ والنابغة الذبياني ١٥٧.

١٠ - انظر الحيوان ٥/٤٤١ (شعر الممزق العبدي) وحياة الحيوان الكبرى ١/٢٢٧.

١١ - انظر الحيوان ٣/٣١٨ (شعر ابن أحمر).

١٢ - انظر الحيوان ٥/٤٤١ ومحاضرات الأدباء ٤/٦٨٨.

١٣ - انظر اللسان (قرد) والحيوان ٥/٤٣٢ و٦/٣٨٥ وسمط اللآلي ٢/٧٥٣- ٧٥٤.

١٤ - انظر اللسان والتاج (قشعم).

١٥ - انظر الحيوان ٥/٤٣٩- ٤٤٠ وجمهرة الأمثال ١/٤٦٨.

obeikandi.com

وللقراد حظ في الشعر الجاهلي فوق حظ الحرقوص من البراغيث. والحُرْقوص فوق البق حجماً[1]، أسود اللون، أحدب يعرض له الطيران[2]. وهو مثل البق يقوى سلطانه على الناس ليلاً، ولعضته أثر واضح[3]، ولدغه أشبه بضرب السياط على خبثه وقذره. ولا يضاهيه في خسته[4] وقذارته إلا الخُنْفُسَاء والجُعَل، وبينهما صلة في الشكل والطباع. فالخنفساء دويبة سوداء أصغر من الجعل منتنة الريح. ويقع اللفظ على الذكر والأنثى. ويقال للأنثى خُنْفَسَة[5]، وأم حُبَين[6]، وللذكر خُنْفَس وحُنْظُب وعُنْظُب[7].

ويتفرد الجعل بأنه قد يصبح ذا جناح ولا يكاد يرى[8]. ولذلك كله صارت الخنفساء، أو الجعل مضرب المثل في نتن الريح واللجاجة والوقوع على الروث[9]. ووصف الرجل القميء بهما[10]، كقول عنترة[11]:

إذا لاقَيْتَ جَمْعَ بَني أَبانٍ ... فَإِني لائِمٌ لِلجَعْدِ لاحِ

كَأَنَّ مؤَشَّرَ العَضُدَيْنِ حَجْلاً ... هَدوجاً بَيْنَ أَقْلِبَةٍ مِلاحِ[12]

فالجَعْد من بني أَبَان يشبه الجعل، وهو أخس الهوام وأرذلها.

---

١ - انظر الحيوان ٤٥٤/٦ وديوان الهذليين ٣٥/٢ واللسان (حرقص).

٢ - انظر الحيوان ٣٧٣/٥ و٣٧٤ و٣٨٤ وحياة الحيوان الكبرى ٢٣٣/١ وسمط اللآلي ٢٣٤/١.

٣ - انظر الحيوان ٣٧٩/٥ و٣٩٧ و٤٠٢.

٤ - انظر ديوان الهذليين ٢٥/٢ والحيوان ٣٨٥/٥ و٣٩٢.

٥ - انظر اللسان والتاج (خنفس وجعل) والحيوان ٣٤٩/٣ و٣٩٦ و٥٢٥.

٦ - انظر محاضرات الأدباء ٦٨٤/٤.

٧ - انظر اللسان والتاج (حنظب) و(خنفس).

٨ - انظر الحيوان ٣٠/١ و٥٠٧/٣ و٢٢٤/٤ و٤٥٤/٦.

٩ - انظر الحيوان ٣٨/١ و٢٣٦- ٢٣٧ و٢١٢/٢ و٣٤٠/٣ و٣٤٥ و٣٤٩ و٤٩٦ و٥٠٠ و٥٠٢ و٥٠٧ و٤٦٨/٦ ومجمع الأمثال ٨٥/٢.

١٠ - انظر ديوان الأعشى ٣٠١ والحيوان ٥٠٣/٥ و٥٠٥.

١١ - ديوان عنترة ٢٩٠.

١٢ - مؤشر العَضُدين: الجعل وفُسِّر على أنه الذئب، راجع ما تقدم ٣٠٧ حاشية (٣). والحَجْلُ: الضخم. والأَقْلِبَة: جمع قَلِيب، وهي البئر. والمِلاح: جمع مِلْح.

openkanal.com

وآخر ما نعرض له من مشاهد الحشرات العناكب. وهذا المشهد ينبئ بصنعة الخالق لهذه الحشرة التي أحكمت شأن معيشتها[1]، وصار نسج بيتها المهلهل في الهواء مضرب المثل[2]. والعناكب جمع عَنْكبوت، ويقع اللفظ على الذكر والأنثى، ويقال للذكر العُكَّاش، والخَدَرْنَقْ (بالدال والذال) والخَدَنَّق (بالدال والذال)، وتكنى الأنثى أم قَشعم[3]. وللعناكب أصناف، من أشهرها الشَّبْتُ وجمع الشِّبْثَان والأَشْبَاث[4]، والرُّتَيْلاء[5] وهي سامّة.

وتقتات العناكب بالذباب[6]، وتدخر الطعام[7]، وتأخذ في نسج بيتها ساعة تولد[8]، ويطلق على جحرها العُكَّاشة والسُّكُّ[9].

ولعل ساعدة بن جؤية واحد ممن تحدث عن الشبث حين شبه نمط الصَّنْعة الدقيق لبيته وحركته وأثرها بما تبقى على صفحة السيف بعد جلائه[10]. ولكن المزرد يتقدم قبل غيره بمشهد طريف للعناكب، إذ ضربها مثلاً لرجل فانٍ فقال[11]:

---

١ - انظر الحيوان ٤١٥/٥.

٢ - انظر سورة العنكبوت ٤١/٢٩ والحيوان ٣٦/١ و١٤٧/٢ و٣٣٩ و٣٨/٤ و٤٠٩/٥ و٤٦٥/٦ و٣٢/٧ ومحاضرات الأدباء ٦٨٣/٤.

٣ - انظر اللسان والتاج (عنكب وعكش وخدق وقشعم).

٤ - انظر اللسان والتاج (شبث).

٥ - انظر اللسان والتاج (رتل).

٦ - انظر الحيوان ٣٣٦/٣.

٧ - انظر الحيوان ٣٤/٤ و٤١٦/٥.

٨ - انظر الحيوان ٣٥٩/٢ و٤١٢/٥ و٤١٦ و١١٨/٦.

٩ - انظر اللسان والتاج (عكش وسك).

١٠ - انظر ديوان الهذليين ٢٣٠/١.

١١ - ديوان المزرد ٦٢ والشعر في الحيوان ٤١٠/٥.

obeikandi.com

ولَـو أنَّ شَـيْخاً ذا بَـنِينَ كأَنَّمـا عَلى رأسِهِ مِنْ شامِلِ الشَّيْبِ قَوْنَسُ[1]

ولم يَبْقَ مِنْ أَضراسِهِ غيرُ واحدٍ إذا مَـسَّهُ يَـدْمَى مِـرَاراً وَيـضْرَسُ[2]

تُبيِّـتُ فيـهِ العَنْكَبُـوتُ بَناتِهَـا نَواشِـئَ حتـى شِـبْنَ أَوْهُـنّ عُـنّسُ[3]

لظَـلَّ إلَيْهـا رَانيـاً وكأنَّـهُ إذا كشَّ ثَورٌ مِنْ كَرِيْصٍ مُنَمِّسُ[4]

فالمزرد شبه رائحة ذلك الشيخ برائحة الأقِط الفاسد، وهو لا يزال يؤخذ بجمال النسوة على يأسه منهن ويديم النظر إليهن، مثله مثل العنكبوت التي لا شأن لها إلا مراقبة بناتها العوانس.

هكذا انتهى مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية وقد غدا فيها وثيقة تاريخية اجتماعية وفكرية مرتبطة برؤية نفسية وفنية للجاهليين.

وكان الحيوان في كل مشهد مدعاة للإعجاب أو مثاراً للشفقة، أو موضعاً للتأمل. ولكنه في مختلف الحالات عَمَّق ارتباطهم الإنساني ببيئتهم وعصرهم، فكان شاهد صِدْق لم يتغير أو يتلون سواء نقل المشهدُ الواقعَ أم جنح نحو الخيال[5] والرمزية، واستحق أن يكون دليل هداية إلى معرفة الحقيقة كما هي. "ولا يخالجني شك في أن أوصاف الوحش لم يكن يراد منها في الأصل مجرد الوصف أو مجرد القصص وإنما كانت لها قيمة رمزية تقليدية اتصلت اتصالاً وثيقاً بمبنى القصيدة القديمة"[6]. ومن هنا ينتقل البحث إلى ذكر أهم نتائجه.

---

١ - القَوْنس: مقدم بيضة السلاح أو علاها.

٢ - يَضْرَس: أي يصيب الضرس كلال وخور عند أكل الشيء الحامض.

٣ - العُنَّس: جمع العانس، وهي التي تجاوزت سن الفَتَاء وطال مكثها فلم تتزوج.

٤ - رنا: أدام النظر. وكَشَّ: صَوَّت. والثور: القطعة من اللبن الجامد. والكَرِيْصُ: اللبن المجموع المدقوق. والمُنَمِّسُ: الذي فسد وأنتن وتغير لونه.

٥ - لعل ذلك كله يغري المرء بالسعي إلى دراسة خاصة تنهض بالحديث عن "الصورة" الفنية للحيوان في الشعر الجاهلي والإسلامي. ولعل هذه الدراسة تستكمل حلقة أخرى من سلسلة أبحاث الحيوان، وربما تنفذ إلى صميم البناء الفني لمشاهد الحيوان.

٦ - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ٣٦٩/١.

openkanal.com